الصوم

في القرآن والسنة

للدكتور
محمد بن محمد أبو شهبة

جمع وإعداد وتقديم
الشيخ
أحمد مصطفى فضلية

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة بالقاهرة

١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦ م

رقم الإيداع : ٧٥٩٠ / ٢٠٠٦
طبع بدار نوبار للطباعة



مكتبة السنة

الدار السلفية لنشر العلم

القاهرة : ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين ،ناصية شارع الجمهورية،
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ - ٣٩١٣٥٣٢ فاكس : ٣٩١٣٥٣٢ - تلكس: ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ - الرمز البريدى : ١١٥١١

إهـــداء

إلى الذين يصومـون لعلهم يتقـون.

والذين لا يصومون لعلهم يهتــدون.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

❋ ❋ ❋

من الدستور الإلهي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [سورة البقرة] .

* * *

من هديه ﷺ

* عن أبي هريرةَ رضِي اللَّهُ عنهُ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُّ عملِ ابنِ آدمَ يُضاعفُ ، الحسنةُ بعشرِ أمثالِهَا إلى سُبْعُمِائَةِ ضِعْفٍ . قال اللَّهُ تَعَالى : إلَّا الصَّومَ فإنَّهُ لي وأنا أَجْزي بِه ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي . لِلصَّائِمِ فَرحَتَانِ : فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّه ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيْحِ الْمِسْكِ » .

وفي رِوَايةٍ : « الصِّيَامُ جُنَّةٌ ، فَإِذَا كَانَ يَومُ صَوْمِ أَحَدِكُم فَلَا يَرفُثْ وَلَا يَصْخَبْ ، فَإِنْ شَاتَمَهُ أَحَدٌ فَلْيَقُلْ إنِّي صَائِمٌ ، إنِّي صَائِمٌ » . [أخرجه الستة] .

* وعَن أبي أُمَامَةَ رضِي اللَّهُ عنهُ قال : قُلْتُ : يَا رسولَ اللَّهِ ، مُرْنِي بِأَمْرٍ يَنْفعَنُي اللَّهُ تَعَالى به ، فَقَالَ : عَلَيْكَ بالصَّومِ فإنَّهُ لَا عَدلَ لَهُ . [أخرجه النسائي] .

* وعنهُ رضِي اللَّهُ عنهُ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ فَطَّــرَ صَائِمًا ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِه ، غَيَر أنَّه لا يَنقُصُ مِنْ أجْرِ الصَّائِمِ شيئًا » . [أخرجه الترمذي] .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ .

والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، وإمام المتقين ، وعلى آله وصحبه ومن تبع سنته ، وسلك طريقته إلى يوم الدين .

أما بعد : فإن علماء الإسلام ودعاته جديرين بالتقدير والشكر ؛ لما بذلوا من جهد في بيان المعارف الإسلامية التي يصلح بها الإنسان ويسعد بها المجتمع ، ويأمن بها العالم ، وتصان بها الحضارة من الانحراف ، وذلك فضل اللَّه ورحمته بالناس ، فقد أنزل اللَّه القرآن العظيم دستورًا إلهيًا مشتملًا على ما يصلح البشر : من أصول الدين القويم ، وقواعد العمل الصالح المستقيم ، وأمر

رسوله الكريم ببيانه للناس، فقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

فأوضح ﷺ معالمه، وأعلى مناره، وقوى دعائمه، وانتظم من الكتاب والسنة أعظم مرجع لمن يبحث عن أسباب الهداية، ويلتمس طريق الاستقامة، فتسابقت همم العلماء إلى الارتشاف من معينه، والاغتراف من فيضه، وتعددت اتجاهاتهم في الأخذ منه، فأتوا من العلوم المختلفة بما يسجل لهم الفخر ويوجب لهم الشكر(١) .

من نعم اللّٰه عليَّ حب العلماء، ومطالعة سيرهم، والتنقيب عن آثارهم ونشرها؛ ليعم بها النفع، وأداءً لواجب الوفاء لهم، وتقديم سيرهم نماذج صالحة للأسوة والقدوة بهم .

وقد وفقني اللّٰه بفضله وكرمه لجمع تراث الدكتور محمد عبد اللّٰه دراز ونشره في السنوات العشر الماضية .

واليوم يهب اللّٰه لعبده الضعيف اليسر والتوفيق لجمع تراث واحد من علماء الأزهر، العالم الجليل الدكتور محمد بن

---

(١) بتصرف عن مقدمة د. علي حسب اللّٰه: «أصول التشريع الإسلامي» .

محمد بن سويلم أبو شهبة ، رحمه اللّه رحمة واسعة ؛ جزاء ما قدم من علم نافع .

والقصة بدأت حين تعرفت على ابنة الدكتور أبو شهبة الأستاذة الدكتورة رباب أبو شهبة عن طريق إحدى تلميذاتي بالمعهد الديني الأزهري ، والتي وفقها اللّه لتتتلمذ على يد الدكتورة رباب بكلية العلوم جامعة الأزهر ، وعملت الدكتورة رباب على توفير لقاء جمعني بكل أشقائها في منزل الدكتور أبو شهبة ، وكانت فرصة للتعارف ، وأبدى أبناء الشيخ ترحيبًا وتشجيعًا للقيام بجمع تراث والدهم ونشره ، ففتحوا لي مكتبة والدهم العالم الجليل ، فاعتكفت فيها خمسة أيام أبحث وأنقب في الأضابير وأقرأ وأطالع في كل المجلات التي كتب فيها الشيخ لمعرفة ما تم نشره وما لم ينشر ، فوجدت تراثًا عظيمًا لم ينشر ؛ مقالات مسلسلة ، ودراسات وبحوث تضيف الجديد المبتكر لمكتبة الثقافة الإسلامية العامرة ، فساعدني الدكتور عمر أبو شهبة ، والدكتور محسن بدر الدين زوج الدكتورة رباب ، على تصوير هذا الكم الهائل من المقالات والدراسات والبحوث .

وأستودعتني أسرة الشيخ أمانة نشر هذا التراث ، فعكفت على

قراءته ، ثم تصنيفه وترتيبه ، فجعلته في ثمان كتب هي :

١- دراسات قرآنية ، ويضم بحوثًا هامة جدًّا لم تُنشر مجمعة من قبل .

٢- الإسلام وقضايا العصر ، ويضم البحوث والمقالات التي تناول فيها الشيخ العلامة بالبسط والتحرير قضايا العصر في ظل الإسلام .

٣- من جوانب العظمة في حياة الرسول ﷺ . ويضم كل المقالات التي كتبها الشيخ في ذكرى ميلاده .

٤- قضايا وأراء في ضوء الإسلام ، وجمعت فيه كل المقالات التي تبرز أراء الشيخ في كثير من قضايا الدين والحياة .

٥- من هدي السنة في الدين والنفس والحياة ، جمعت فيه شروحًا لأحاديث مختارة نشرها الشيخ في مجلة الأزهر في أوائل السبعينات لا غنى عنها للدعاة والمربين والوعاظ والمرشدين .

٦- من إعلام الإسلام صفحات من البطولة .. وصور من الفدائية . جمعت فيه كل ما كتبه الشيخ عن أعلام الإسلام من عصر النبوة إلى العصر الحديث .

٧- الحج في ضوء القرآن والسنة . جمعت فيه كل ما كتبه

الشيخ بقلمه السيال عن الركن الخامس .

٨- الصوم في ضوء القرآن والسنة ، وهو الكتاب الذي بين يدي القارئ العزيز .

وفي هذا الكتاب تظهر لنا قوة روح الشيخ ، فيقدم للقراء نفحات روحه ، فها هو يرحب بشهر الصوم مغتبطًا مسرورًا فيقول : « مرحبًا بك يا رمضان نقولها من قلوبنا ، ومن صميم وجداننا ، لا من طرف لساننا فمعاذ الله أن نقول ما لا نعتقد . أو نقول ما لا نفعل ، أو نُرائي الناس بذلك .

مرحبًا بك يا شهر الصيام ، ثاني شريعة من شرائع الإسلام ، وعبادة تسمو بنا إلى درجة الأخيار ، وتجعلنا أهلًا لأن يباهي بنا الله ملائكته الأطهار » .

بهذه الروح كتب الشيخ عن الصوم كميدان للتربية وجهاد النفس ، وتحدث بروح المؤمن عن فضل وفضائل شهر رمضان .

وكتب عن الصيام في القرآن فأبان هدي القرآن الكريم في فرضية الصيام ، وقدم تفسيرًا جامعًا لآيات الصيام ، وعرَّج على الصوم في السنة ، فأفاد وأفاض ، ثم بيّن مغزى شريعة الصيام من خلال تشريع الصيام في الإسلام ، والصوم والطب الحديث ،

والصوم والتربية النفسية .

وختم الشيخ كتابه بالحديث عن الانتصارات الخالدة والذكريات الماجدة في شهر رمضان المعظم .

وفي الختام أسجد للَّه شكرًا أن شرح صدري للقيام بهذه المهمة الجليلة التي أرجو من ورائها شفاعة العلماء الصالحين ، وعملًا صالحًا متقبلًا من رب العالمين .

أحبُ الصالحينَ ولستُ منهم
عساي أن أنال بهم شفاعة
وأكرهُ مَن بضاعته المعاصي
وإن كُنا سواء في البضاعة

ويعلم اللَّه كم كنت أشفق على نفسي من هذه المهمة التي أعتقد أنني لست لها أهل ، ولكن حبي للعلماء هو الذي أنالني شرف هذا الاستعمال لجمع ونشر تراثهم المبارك والذي نحن في أمس الحاجة إلى كل كلمة من كلماته ، فأشكر اللَّه عظيم الشكر أن استعملني لنشر تراث ثلاثة من كبار علماء الأزهر : [الدكتور محمد عبد اللَّه دراز ، والشيخ محمد محمد المدني ، والدكتور محمد بن محمد أبو شهبة] ، رضي اللَّه عنهم أجمعين ، وجمعني

بهم في مستقر رحمته ، اللهم آمين .

هذا وأشكر أسرة الدكتور أبو شهبة أن فتحت لي مكتبة الشيخ العامرة ، وأسأل اللّٰه أن يجزي مكتبة السنة بالقاهرة خير الجزاء على خدمتها لسنة رسول اللّٰه ﷺ .

وآخر دعوانا أن الحمد للّٰه رب العالمين .

كتبه الفقير إلى عفو اللّٰه
أحمد مصطفى عبد العزيز فضلية
محلة دياي – دسوق

(١)
استقبال رمضان

مرحبًا بك يا رمضان[1]

مرحبًا بك يا رمضان : نقولها من قلوبنا ، ومن صميم وجداننا ، لا من طرف لساننا فمعاذ الله أن نقول ما لا نعتقد . أو نقول ما لا نفعل ، أو نرائي الناس بذلك .

مرحبًا بك يا شهر الصيام ، ثاني شريعة من شرائع الإسلام وعبادة تسمو بنا إلى درجة الأخيار ، وتجعلنا أهلًا لأن يباهي بنا الله ملائكته الأطهار .

مرحبًا بك يا شهر القرآن ، ففيك ابتدأ نزول القرآن على النبي المختار ، وهو يتعبد بغار في جبل حراء ، أو إن شئت فقل جبل النور كما يقول الناس ، وحق لهم أن يقولوا ذلك . فمن هذا الغار انبثق نور الوحي الإلهي الذي حمله خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله الأمين ، وفيه كان أول لقاء بين أمين الوحي في السماء جبريل ، وأمين الشريعة العامة الخالدة في الأرض محمد عليه الصلاة والسلام ، وكانت طلائع هذا الوحي الإلهي خمس

---

(١) مجلة رابطة العالم الإسلامي ، السنة الثامنة ، العدد السابع ، رمضان سنة ١٣٩٠هـ / نوفمبر ١٩٧٠م .

آيات من صدر سورة اقرأ ، قال عز شأنه :

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

والتعليم بالقلم إشارة إلى العلم الكسبي ، وتعليم الإنسان ما لم يعلم إشارة إلى العلم الوهبي ، ومنه علم الأنبياء والمرسلين ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإسلام دين العلم والمعرفة ، وأن المسلمين لما فهموا هذه الحقيقة وعملوا بها كانوا سادة العالم علمًا ، وحضارة ، وعزة وقوة .

وقد انقطع الوحي بعد نزول هذه الآيات الخمس فترة كي يسترد النبي أنفاسه من العناء الذي لقيه من هذا اللقاء ، وكي يشتاق إلى لقاء أمين الوحي الموكل بالأنبياء ، ثم لم يلبث أن تتابع الوحي ، وتوالى ، حتى تم نزول القرآن الكريم في بضع وعشرين سنة تقريبًا ، واستضاءت الدنيا بنور هذا الكتاب الكريم ، وامتلأت توحيدًا بعد أن ملئت كفرًا ، وشركًا ، ووثنية ، وهداية بعد أن ملئت ضلالًا ، وخيرًا بعد أن ضاقت بالشر وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول : ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ

ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة : ١٥، ١٦] .

مرحبًا بك يا شهر النصر ، ففيك كانت غزوة بدر الكبرى التي كانت أول نصر في الإسلام وكانت فرقانًا بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، ونصر الله فيها فئته وحزبه ، على فئة الكفر ، وحزب الشيطان ، وكان لها ما بعدها في تاريخ الإسلام ، وصدق الله تبارك وتعالى حيث يقول : ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [آل عمران : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال : ٤١] .

فالقرآن فرق بين الحق والباطل ، ويوم بدر فرق الله به بين الضعف والذلة ، وبين العزة والنصر ..

وفي رمضان كان فتح الفتوح في العهد النبوي ، بل في تاريخ

الإسلام ، وبفتح مكة واتت الجزيرة العربية كلها للإسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ، وصارت الجزيرة مؤمنة موحدة ، وعلى قلب رجل واحد وصدق الله حيث يقول :

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر : ١ – ٣] .

وبفتح مكة انطلقت دعوة الإسلام إلى كل أقطار الأرض المعروفة ، وحمل لواء الدعوة بعد النبي الصحابة الكرام ، وتمت الفتوحات الإسلامية المظفرة الرحيمة وارتفع اسم الله على المآذن من المحيط إلى المحيط – الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدًا رسول الله ... –

مرحبًا بك يا رمضان يا شهر الصيام الذي يقي أبداننا من التخمة ، ويصح أجسامنا من الأمراض ، ويسمو بأرواحنا إلى معارج القدس ، ويطهر نفوسنا من الحرص والبخل ، وسوء الأخلاق ، وألسنتنا من اللغو ، والرفث .

مرحبًا بك يا رمضان ، يا شهر القيام ، يا شهر التراويح ، التي يجتمع عليها الناس اجتماعًا لا يكون في غيرك من الشهور ،

فيتصافون ، ويتراصون ، كما تصف الملائكة عند ربها ، لا فرق بين رجل وامرأة ، ولا بين شيخ وصبي ، يرجون من الله أن يقبل منهم الصيام والقيام ، ثم ينصرفون وفي قلوبهم السرور ، وبين أيديهم النور .

إن للمساجد في رمضان لروعة ، في المدن ، والقرى ، والدساكر والكفور ، وفي كل قطر ومصر ، وفي كل بلد فيه من يدين بالإسلام ، ولكل بلد عاداته ، ولكل قطر تقاليده ، ولكنها كلها تلتقي عند الرغبة في رضوان الله ، والفوز بجنته ونعيمه ، لا يثني الناس عن الاجتماع في المساجد فيك حر ولا برد ، ولا بعد مسافة ، ولا ظلمة ليل .

مرحبًا بك يا رمضان ، يا شهر البر والرحمة ، ويا شهر التكافل الاجتماعي الحق ، ويا شهر التحاب ، والتزاور ، ويا شهر الجود والإحسان .. كم مدت وتمد فيك من موائد وكم من الفقراء والمساكين من أطعموا فيك وكم من عارٍ فيك كُسِيَ ، وكم من ذي حاجة قضيت حاجته ، وكم من مكروب فيك فرج كربه .

فيك تسخو النفوس الشحيحة ، وفيك تزداد النفوس السخية سخاء إلى سخائها فأنت شهر كريم ، من رب كريم ، لقوم كرماء .

إن المسلمين حينما يجودون فيك فإنما يصدرون في ذلك عن أدب من أدب الإسلام ، وخلق من خلق النبوة ، روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فالرسول ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة .

مرحبًا بك يا شهر ليلة القدر : ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [القدر : ٢ – ٥] .

ليلة التجليات الإلهية ، والرحمات الربانية ، فيها تغفر الذنوب ، وتغسل النفوس من أدرانها ، وفيها تسبح الملائكة في أرض الله ، فتستغفر وتدعو لكل مؤمن ومؤمنة يقوم هذه الليلة ، ولا تزال كذلك حتى يؤذن المؤذن لصلاة الفجر ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ تشهده ملائكة الرحمن ، تلذذًا بما يسمعون وشهادة لمن يصلون حين يصعدون ، فاحرص أيها المسلم على هذه الليلة المباركة فإن من فاتته فقد فاته خير كثير ، واحرص على حضور صلاة الفجر ، ولاسيما في ليلة القدر ،

لتكتب عند الله من القوامين ، والمستغفرين بالأسحار .

مرحبًا بك يا رمضان ، ولن نضيق بك ذرعًا ، لأننا لسنا عبيد أهوائنا وشهواتنا ولسنا أُسراء بطوننا ، وإن لذعة الجوع فيك عندنا كلذة الشبع ، وحرارة العطش فيك كبرودة الري ، وصوم الجوارح فيك عند الله كتسبيح الملائكة ، وما بالك أيها المسلم بشهر نهاره صيام ، وليله قيام ، والنوم فيه عبادة ، والصمت فيه تفكر والكلام فيه ذكر ، والجوع فيه شبع ، والسحور فيه بركة ، وريح الفم المتغير فيه من الجوع عند الله أطيب من ريح المسك !

مرحبًا بك يا رمضان ، ولن نوافق على ما يقولون ويزعمون من أنك معوق عن الإنتاج وأنك مضر بالاقتصاد ، لأن فيك يأكل الناس ملء بطونهم ، وينامون ملء جفونهم ، ويسرفون في أكلهم وشربهم ، ويفرطون في أعمالهم ، ويقصرون في أداء واجبهم لا والله ما هكذا كان رمضان ، ولا هكذا كان الصحابة والسلف في رمضان ، وما لهذا جعل الله شهر الصيام والقيام ، لقد كان المسلمون في الصدر الأول لا يستعدون لرمضان بكثير طعام ، ولا شراب وإنما كان كغيره من الشهور . وما تقاعسوا فيه عن عمل ، ولا فرطوا فيه في أداء واجب ، ولا قصروا فيه في المسئولية .

وليس أدل على هذا من أن غزوة بدر الكبرى كانت في رمضان ، وفي وقت من شدة الحر والقيظ ، وكان في الصحابة من هو صائم بل لعلهم الكثيرون ، وفيهم من أفطر ، وكذلك كانت غزوة الفتح في رمضان ، وكان كذلك وقت حر وقيظ .

وكان الصحابة رضي الله عليهم منهم الصائم ومنهم المفطر فما عاب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم ، وهذه هي سماحة الإسلام ، وكان التاجر منهم يقوم في رمضان بتجارته ، والزارع بزراعته ، والعامل بعمله ، فإذا كان وجد في المسلمين اليوم من يتراخى أو يقصر في أداء عمله ، ويتخذ من نهاره نومًا وكسلًا ، ومن ليله لهوًا ولعبًا ، فليس الذنب في ذلك ذنب رمضان ، ولا ذنب الصيام ، وإنما هي رذيلة سرت إلى المسلمين لما لم يفهموا دينهم كما ينبغي ، ولم يعملوا به كما يجب ، ثم إن الكسلان المتراخي في عمله ، الذي لا يراقب الله فيه ، سيان عنده في التفريط في رمضان وغير رمضان .

والمسلم الأمين المراقب لله سيان عنده في العمل والجد رمضان ، وغير رمضان ، وإني أشهد الله أني في رمضان ، أقرأ وأكتب وأعمل في رمضان مثل ما يكون في غيره ، بل يزيد ،

وارتاح من قول أهلي وولدي : نحن في انتظارك على الفطور ، نحن في انتظارك على الغداء حتى أتمنى لو كنت في رمضان !

وبعد : فمرحبًا بك يا هلال رمضان ، وإنا لنقول في استقبالك ما كان يقول رسولنا ، وقدوتنا ، ونبينا محمد حينما كان يراك : « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام هلال رشد وخير » .

❊ ❊ ❊

(٢)
فضائل شهر رمضان

١- من فضائل شهر رمضان

٢- شهر القرآن

٣- رمضان والقرآن

٤- ليلة القدر

٥- شهر الصبر والنصر

(١)

من فضائل شهر رَمضَان[١]

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال – واللفظ لمسلم –: « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين » وفي رواية للبخاري : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب السماء ...» وفي رواية لمسلم : « إذا كان رمضان فتحت أبواب الرحمة » .

تخريج الحديث :

روى هذا الحديث الإمام البخاري في صحيحه[٢] والإمام مسلم في صحيحه[٣] والإمام الترمذي في جامعه[٤] ، والإمام

(١) مجلة الأزهر ، ج٧ سنة ٤٢، رمضان ١٣٩٠هـ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب : هل يقال : رمضان ، أو شهر رمضان ، ومن رأى كله واسعا .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الصوم ، باب : بيان فضل الصوم .

(٤) كتاب الصوم ، باب : ما جاء في فضل شهر رمضان .

النسائي في سننه[1] ، والإمام ابن ماجه في سننه[2] وابن خزيمة في صحيحه[3] وأورده بلفظ : « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ، ومردة الجن وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب ، وفتحت أبواب الجنة ، فلم يغلق منها باب ، وينادي مناد : يا باغي الخير أقبل ، ويا باغي الشر أقصر ، ولله عتقاء من النار ، وذلك كل ليلة » .

وسأعرض لشرح الرواية المتفق عليها ، وما زاد في الرواية الأخرى فأقول وبالله التوفيق .

« الشرح والبيان » :

« عن أبي هريرة رضي الله عنه » ستأتي ترجمة هذا الصحابي الراوية الجليل : « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة » .

« رمضان » هو الشهر العربي الواقع بين شعبان وشوال . وسُمي رمضان لأن العرب لما وضعت أسماء للشهور غير أسمائها البائدة

(١) سنن النسائي ، كتاب الصيام ، باب : فضل شهر رمضان .

(٢) كتاب الصيام ، باب : ما جاء في فضل شهر رمضان .

(٣) فتح الباري ج٤ ص ٩١.

صادف أن كان هذا الوقت وقت اشتداد الحر، حتى صارت الرمال كالرمضاء من شدة الحرارة فسموه بذلك، وعلى هذا يكون اسمًا جاهليًا ومعروفًا قبل مجيء الإسلام، وقيل لأن الذنوب ترمض فيه، أي تحرق، وتذوب بسبب الطاعات، ومقتضى هذا أن يكون الاسم إسلاميًا، اللهم إلا إذا كان هذا اعتقادًا لهم في الجاهلية ولعل الأول هو الأولى.

وقد دل هذا الحديث وغيره على جواز أن يقال رمضان بدون لفظ شهر، وقد استفاض ذلك في الأحاديث، ومن العلماء من قال: لا يجوز أن يقال: رمضان، وإنما يقال شهر رمضان، وقد استدلوا لهذا بحديث رواه ابن عدي في كتابه: «الكامل» بسنده عن أبي هريرة مرفوعًا: «لا تقولوا: رمضان؛ فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا شهر رمضان». وفي سنده أبو معشر نجيح المدني وهو ضعيف، وكذا روى من طريقين آخرين ضعيفين، وعلى هذا فلا يصلح للاحتجاج به، ولاسيما مع معارضته للأحاديث الصحاح المجوزة لذلك، ومن العلماء من فصل فقال: إن كانت هناك قرينة تصرفه إلى الشهر فلا يكره إطلاق ذلك، وإلا يكره، والصحيح الجواز، وهو الذي عليه

جماهير العلماء سلفًا وخلفًا : « فتحت أبواب الجنة » .

وفي رواية : « فتحت أبواب السماء » ، وفي رواية : « فتحت أبواب الرحمة » والمراد بهذا توفيق المسلمين في هذا الشهر أو جلهم إلى الطاعات من صيام ، وصلاة ، وقيام ، وقراءة قرآن ، وذكر ودعاء إلى غير ذلك وليس من شك في أن هذه الطاعات من أسباب العفو ، وكثرة الثواب ، وهما من أسباب دخول الجنة ، والفوز بنعيمها ، فتفتيح أبواب الجنة كناية عن استحقاق دخولها ، وهذا هو المراد أيضًا برواية تفتيح أبواب السماء ، وأبواب الرحمة ، فإن من تفتحت له أبواب السماء قُبل دعاؤه ، وقُبل عمله فيكون أهلًا لدخول الجنة ، والجنة محل رحمة الله تعالى ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٧] .

فجمهور المفسرين على أن المراد بقوله : ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ أي ففي جنته من قبيل إطلاق الحال ، وإرادة المحل ، فإن كان النبي ﷺ ذكر الحديث غير مرة فيجوز أن يكون من قبيل التفنن في العبادة ، وإن كان النبي قاله مرة واحدة فالذي نرجحه أن تكون الرواية الأولى لفظ النبي ﷺ ، وتكون الروايتان الأخريان من قبيل

الرواية بالمعنى ولا ضير في هذا بعد ما بينت أن الروايات متآلفة . وليست متخالفة ، وجوز بعض العلماء حمل تفتيح أبواب الجنة على ظاهره وهو أمر ممكن ، ولا استبعاد فيه ، وإن كان الأولى هو ما ذكرناه أولًا من حمل الحديث على التمثيل ، والمجاز ، لأنه باب في العربية واسع ، وأسلوب مألوف لهم ، معهود عندهم ، وله من التأثير في النفس ما له .

« وغُلقت أبواب النار » .

وفي رواية غير الشيخين : « وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب » وهي أوكد ، وأوضح والمراد الحيلولة بين الصائمين أو معظمهم في هذا الشهر وبين المعاصي ، والآثام التي هي من أسباب دخول النار ، والتلظي بحرها وجحيمها ، والمراد بهذا الصائمون الذين يؤدون صيامهم على ما شرع الله ورسوله ، والذين يراعون للصوم : أركانًا ، وشروطًا ، وسننًا ، وآدابًا ، وسلوكًا ، وإذا كان بعض الصائمين يَغْشَوْنَ بعض المعاصي والآثام في هذا الشهر فليس ذلك بحجة تقوم على المُشَرِّع ، ولا تصلح أن تكون مطعنًا في التشريع ، وذلك كالطبيب النطاسي البارع الذي يصف العلاج الناجع للمريض ، فيذهب المريض ،

ولا يتناول الدواء، أو يخلطه بما يفسده أو يتهاون في طريقة استعماله .

فمن ثم لا يستفيد منه ، ولا يحقق الغاية المرجوة ، فهل هذا يعود على الطبيب بالطعن في علمه ، وبراعته ؟ اللهم لا ، وقد يقال : إن الفقرتين في الحديث متلازمتان فاستحقاق دخول الجنة يلزمه عدم دخول النار ، فلم لم يكتف بأحدهما عن الأخرى ؛ لأنا نقول : إن مثل هذا المقام لا يكتفى فيه بالإيجاز ، ولا بدلالة الالتزام ، بل هو مقام إطناب وبيان ، لأنه أدل على التأثير في النفس ، والقلب ، والوجدان ، فقد وضع ﷺ بين يدي السامع الصورة المحبوبة « أبواب الجنة » .

والصورة المكروهة « أبواب النار » مما يُرغب في الأولى ويُنَفِر من الثانية ، فلله در حديث رسول الله ، ومن العلماء من حمل هذه الفقرة من الحديث على معناها الحقيقي ، وهو أمر ممكن ، وجائز ولكن حمله على التمثيل والمجاز أروع ، وأشد تأثيرًا .

« **وصُفِّدَت الشياطين** » .

صفدت : بضم الصاد وتشديد الفاء المكسورة أي شدت

بالأصفاد[١] وهي الأغلال والقيود التي يغل بها الشخص ، ويقيد ، وهو بمعنى الرواية الأخرى : « وسُلسلت الشياطين » أي قُيدت بالسلاسل فلا تملك حرية الحركة والانطلاق وبذلك تتوافق الروايتان ، وتفسر إحداهما الأخرى وفي بعض الروايات أن ذلك خاص بمردة الشياطين ، جمع ما رد ، وهو المفسد شديد الإيذاء والمراد بتصفيد الشياطين تقليل إغوائهم ، ووسوستهم ، وإيذائهم والحيلولة بينهم ، وبين الحرية الكاملة في هذا ، لأن الشأن في المصفد أنه عاجز عن الحركة ، والإفساد ، والإيذاء ، وذلك أن الشياطين لا يخلصون من افتتان للمسلمين إلى ما يخلصون إليه في غيره ؛ لاشتغالهم فيه بالصيام الذي فيه قمع الشهوات ، وبقراءة القرآن ، والذكر وقيام الليل وما يترتب على ذلك من صفاء الروح ، وشفافية النفس ، وتيقظها ، إذا ما طاف بها طائف من الشيطان ، أو وقعت بها لمة وصدق الله تبارك وتعالى في قوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم

(١) في القاموس مادة (صفد) : صفده يصفده : شده وأوثقه ، كأصفده وصفده ، والصفد محركة ؛ يعني بفتح الفاء : العطاء والوثاق ، وككتاب ما يوثق به الأسير من قد ، أو قيد ، والأصفاد : القيود .

مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠١] وغلبة الاستقامة والصلاح في هذا الشهر أمر محسوس ملموس ، ومن العلماء من حمله على ظاهره ، والشياطين أو مردتهم خلق من خلق الله يجوز تصفيدهم ، وتقييدهم ، وحبسهم ومهما يكن من شيء فالحديث دال على فضل شهر رمضان ، ومنزلته ، وأن الله سبحانه وتعالى هيأ فيه لعباده الصائمين من أسباب الاستقامة والتقوى والطاعة ، وتفتيح أبواب جنته ورحمته ، وتغليق أبواب ناره ، وغضبه ، ونقمته وتضييق مسالك الإغواء ، والإضلال على الشياطين ما لم يهيئ ذلك لغيره من الشهور فأحبب به إلى النفوس المؤمنة الصافية .

« وينادي مناد : يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر » ، يا باغي : أي يا طالب ، من بغى بمعنى طلب ، يجوز أن يكون المنادي ملكًا من ملائكة الله موكلًا بذلك في شهر رمضان ، ويجوز أن يكون هذا تمثيلًا ومجازًا عن حب الله تبارك وتعالى للخير ، ودعوته سبحانه عباده أن يسارعوا إلى فعل الخيرات وترك المنكرات ، وعدم الإسراف والاسترسال فيها ، وهذا يدل على فضل الله ورحمته ، وأن رحمته سبقت غضبه ، وعفوه غلب نقمته سبحانه ، سبحانه ، لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه .

« ولله عتقاء من النار ، وذلك كل ليلة » ، عتقاء جمع عتيق فعيل بمعنى مفعول مثل كريم ، وكرماء ، وربما جاء عتاق مثل كرام ، وأمة عتيق أيضًا بغير هاء وربما ثبتت ، فقيل : عتيقة وجمعها عتائق فطوبى لمن صام نهار هذا الشهر ، وقام ليله ، وكف قلبه عن الأحقاد والضغائن ، والعقائد الزائفة ، والأهواء المضلة ونفسه عن الخواطر السيئة ، وجوارحه عن المآثم والمعاصي ، والمحرمات ، إنه إن فعل فهو ممن يُرجى له أن يكون من عتقاء هذا الشهر الكريم . في أي ليلة من لياليه .

وبعد ، فيا أيها المسلمون إن الأرواح تمل من الانغماس في حمأة الشهوات كما تمل الأبدان من العناء ، والبطنة ، وإن النفوس تصدأ بالمعاصي كما تصدأ المعادن بالترك والإهمال ، وقد شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل من رمضان تزكية لأرواحنا ، وتطهيرًا لنفوسنا ، وإصلاحًا لأبداننا ، وغفرانًا لذنوبنا وتراحمًا وتعاطفًا بيننا ، فهلموا إلى شهر الله تصحوا ، وتغنموا ، وتنصروا ، وتفوزوا بالرضوان الأكبر .

* * *

(٢)

شهر القرآن[١]

القرآن الكريم: هو كلام الله عز وجل المنزل على خاتم أنبيائه، محمد صلوات الله وسلامه عليه، المعجز بلفظه المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين، المكتوب في المصاحف من أول (سورة الفاتحة) إلى آخر (سورة الناس).

﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

وهو المعجزة العظمى، والحجة البالغة على وجه الدهر لرسول البشرية سيدنا محمد ﷺ، تحدى به الناس كافة، بل والجن، أن يأتوا بمثله فباءوا بالعجز والبهت.

وقد وقع التحدي بالقرآن على مراتب متعددة، كي تقوم عليه الحجة تلو الحجة، وتنقطع المعذرة:

١- تحداهم أولًا: أن يأتوا بمثله، فعجزوا وما استطاعوا.

---

(١) مجلة الأزهر، جـ٩ ج ٢٧.

قال الله تعالى في (سورة الإسراء) المكية الآية ٨٨: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ .

٢- ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله ، فما قدروا . قال الله تعالى : في (سورة هود) المكية الآية ١٣، ١٤: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[1] الآية .

٣- ثم تحداهم مرة ثالثة : بأن يأتوا بسورة منه ، أي سورة مهما قصرت كسورة (الكوثر) ، فقال تعالى في (سورة يونس) المكية الآية ٣٨: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ . فما رفعوا بذلك رأسًا .

٤- ثم كرر التحدي بسورة ما فقال : في سورة (البقرة)

---

(١) « مفتريات » هذا من قبيل التنزل مع الخصم والتساهل معه في الحجاج كي يكون الإفحام أدل على الإعجاز ، أي إن كان مفترى - كما تزعمون - فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، والمراد المماثلة في الفصاحة والبلاغة وجزالة المعنى وسمو المقاصد والاشتمال على العلوم والمعارف .

المدنية الآية ٢٣، ٢٤: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فألقموا حجرًا ولم ينبسوا في المعارضة بكلمة .

وبذلك ثبت إعجاز القرآن على أبلغ وجه وآكده ، وإذا ثبت عجز العرب عن المعارضة فغيرهم بالعجز أحرى وأولى .

والقرآن هو هداية الخالق لإصلاح الخلق ، وشريعة السماء لأهل الأرض ، وهو التشريع العام الخالد الذي تكفل بجميع ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم ، في العقائد والأخلاق ، وفي العبادات والمعاملات المدنية والجنائية ، وفي الاقتصاد والسياسة والسلم والحرب ، وهو في كل ذلك حكيم كل الحكمة لا يتطرق إليه نقص ولا إبطال .

فلا عجب إن كانت السعادة الحقة لا تنال إلا بالاهتداء بهديه ، وأن كان الشفاء لأمراض النفوس وأدواء المجتمع ، وصدق الله : ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الآيتين [الإسراء: ٩، ١٠] ، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ

لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الإسراء: ٨٢].

وهو الذي قضى على العنجهية ودعاوى الجاهلية، وقضى على التفرقة العنصرية والنسبية واللونية، ووضع أساس المساواة بين الناس كافة، فالناس ربهم واحد وكلهم لآدم، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض، وإنما التفاضل بالتقوى، والتقوى جماع كل هدى وحق وخير، وصدق الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وهو الكتاب الذي صلحت به الدنيا وحول مجرى التاريخ، وأقام أمة كانت مضرب الأمثال في الإيمان والإخاء والعدل والوفاء، وأظل العالم بلواء الأمن والسلام أحقابًا من الزمان.

وهو الكتاب الذي لا تنفد عجائبه ولا تنقضي درره ولا يخلق على كثرة الرد ولا يزداد على التكرار إلا حلاوة، وصدق القائل:

تزداد منه على ترداده مقة
وكل قول على الترداد مملول

ومهما تعاقبت عليه الأجيال والسنون لا يزداد إلا جدة

وطرافة ، ولا يزال غضًا طريًا كما نزل ؛ وكلما تقدمت العلوم والمعارف تكشف للناس منه العجب العجاب ، وصدق الحق تبارك وتعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وقصارى القول وحماداه أنك لن تجد في الكشف عن حقيقة هذا الكتاب وخفاياه وفضائله ومزاياه أوفى مما وصفه به نبينا محمد بن عبد الله : روى الترمذي بسنده عن الحارث الأعور قال : مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على عليّ فقلت : يا أمير المؤمنين ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث ؟ قال : أوقد فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ألا إنها ستكون فتنة . قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا

يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد فآمنا به ، من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم »[1]

إن كتابًا هذا شأنه لجدير أن يضعه الإنسان بين عينيه ، ويجعله أنيسه في خلوته ورفيقه في سفره وصديقه الصدوق في يسره وعسره ومستشاره الأمين في دينه ودنياه وحجته البالغة في حياته وأخراه .

وشهر رمضان هو شهر القرآن ، ففيه ابتدأ نزوله على النبي ﷺ وهو يتعبد بغار حراء ، وفيه كان يجتمع الرسول الكريم وأمين الوحي جبريل في كل ليلة من لياليه يتعاهدانه ويتدارسانه . وفي العام الذي توفي فيه الرسول عرضه عليه جبريل عرضتين فعلم أن

---

(١) قال الترمذي فيه : « حديث غريب وإسناده مجهول وفي حديث الحارث مقال » . وذكره الحافظ السيوطي في الإتقان ، وقال : أخرجه الترمذي والدارمي وغيرهما وسكت عنه . وكذا ذكره الحافظ ابن كثير في « فضائل القرآن » ، وتعقب كلام الترمذي بما يدل على اعتماده للحديث ، والمتأمل فيه يجد قبسًا من نور النبوة وحكمًا من ينابيع الوحي مما يجعل القلب يطمئن إليه .

شمس النبوة قد آذنت بالمغيب وأن أجله المبارك قد قارب الانقضاء . روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة . وفي الصحيح أيضًا عن فاطمة رضي الله عنها قالت : أسر إليّ النبي ﷺ أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة وإنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضور أجلي .

وهكذا كان الصحابة في رمضان يتخذون منه موسمًا للعبادة وقراءة القرآن والذكر ، وموسمًا للخيرات والتعاون على البر والتقوى . فالمسلم حينما يشتغل بقراءة القرآن ومدارسته في رمضان فإنما يصدر في ذلك عن هدى من هدى النبوة وسنة من سنن السلف الصالح . وتعاهد القرآن واجب على كل مسلم في كل وقت ، بيد أنه في رمضان أولى وأحب ، وما لم يتعاهد المسلم القرآن تسارع إلى النسيان ، وفي الحديث الصحيح : « تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تَفَصّيًا – أي تفلتًا – من الإبل في عقلها » . رواه البخاري .

لقد أتى على المسلمين في مصر حين من الدهر كنت لا تمر على بيت إلا وتجد لهم بقراءة القرآن دويًا كدوي النحل ، هذا إلى دروس العلم ومجالس الأدب والسمر البريء المفيد ، وكنت تجد القلوب متحابة والنفوس متآلفة والتسابق في ميدان البر والخير أمرًا معهودًا مألوفًا ، فلما استحكم في الناس التقليد لغيرنا واستهواهم ما زعموه حضارة وتقدمًا ذهب بما بقي من هذه العادات الكريمة التي كانت تنبع من صميم البيئة المصرية المتدينة ، وأصبح الحال على ما ترى ، فلا قرآن يتلى ، ولا تسابق في مجال البر والتقوى .

لا . لا . أيها المسلمون : أعيدوا ما درس من عاداتكم وتقاليدكم الكريمة في شهر القرآن ، فقد روى البزار من حديث أنس : « إن البيت الذي يقرأ فيه القرآن يكثر خيره ، والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره » . وأخرج الترمذي والحاكم من حديث ابن عباس : « إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخَرِب » وأخرج الحاكم من حديث أبي هريرة : « يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول القرآن : يا رب حله .

* * *

(٣)

رمضان والقرآن[1]

قال تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

لرمضان من الخصائص الدينية ما ليس لغيره من الشهور فهو الشهر الذي جعل الله صيامه أصلًا من أصول الإسلام وفريضة محكمة باقية إلى يوم الدين وهو الشهر الذي اتصلت فيه حبال الأرض بأسباب السماء وأشرقت فيه الأنوار فبددت الظلماء وتشرفت فيه البشرية بروح من الله وهداية من الرحمن ذلك أنه هو الشهر الذي أنزل الله فيه كتابه مهيمنًا على جميع كتبه السماوية ألا وهو القرآن ، وللقرآن الكريم نزولان .

١ - نزول من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ثم نزل بعد ذلك على النبي صلوات الله وسلامه عليه منجمًا مفرقًا وكان هذا النزول في ليلة ميمونة مباركة قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ وهذه الليلة المباركة هي ليلة القدر لقوله تعالى :

(١) مجلة الحج ، السنة السابعة ، العدد الثالث .

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ وهي ليلة من ليالي رمضان قطعًا لقوله تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ .

قد ورد في الأثر عن ابن عباس – حبر الأمة – ما يدل على هذا النزول فمن ذلك ما رواه الحاكم والبيهقي وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « أنزل الله القرآن في ليلة القدر جملة واحدة وكان بمواقع النجوم وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في أثر بعض » .

وهذا لا يقوله ابن عباس بمحض الرأي فله حكم المرفوع إلى النبي وإذا كان ظاهر القرآن لا يعارض هذا الرأي وتدل عليه الآثار بهذا لا تزال جملة أن يجمع للقرآن النزولين جملة ومفرقًا ليحوز ما كان لغيره من الكتب السماوية من نزولها جملة واحدة وينفرد هو بالنزول مفرقًا هذا إلى ما في إنزال القرآن جملة من حكمة جليلة شريفة وهي تشريف أمر القرآن وأمر من نزل عليه وهو النبي وأمر هذه الأمة المحمدية بإشاعة ذلك وإعلام سكان السماوات وهم الملأ الأعلى بأن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم .

٢- نزوله على النبي ﷺ مفرقًا كفاء الوقائع والحوادث

وحاجات الناس في بضع وعشرين[1] سنة وكان ابتداء هذا النزول في شهر رمضان في اليوم السابع عشر منه - كما ذهب إليه المحققون - وكان النبي حينذاك يتعبد في غار حراء فنزل جبريل عليه السلام تحف به أنوار الوحي الإلهي على النبي بصدر سورة اقرأ : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وبذلك أنزل الله صفحة مشرقة في كتاب الهداية الإلهية للبشر عامة وبدأ تاريخ الإنسانية يتجه نحو ينبوع الإيمان والحق والفضيلة روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : «أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء

---

(١) اتفق المؤرخون على أن النبي ﷺ مكث بالمدينة عشر سنوات ، أما في مكة فقيل عشر ، وقيل ثلاثة عشر ، وقيل : خمسة عشر ، وأوسطها وأقربها وأحراها بالقبول والتحقيق ، إن مدة نزول القرآن حوالي اثنتين وعشرين سنة ونصف سنة .

فجاءه الملك فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ ؛ فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ ؛ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ - فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

فقال لخديجة وأخبرها الخبر - لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن عم خديجة وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخًا كبيرًا قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعًا ، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ أومخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به ألا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي»[1]. فتر الوحي مدة ثم جاء على شوق فكان موقعه من نفس الرسول كموقع الماء من ذي الغلة الصادي ثم تتابع الوحي بما فيه الهدى والفلاح للعباد وصلاح البلاد وما زال جبريل الأمين ينزل بالقرآن الآية والآيتين والخمس والعشر بل والسورة بأكملها حتى كان آخر آية نزلت هي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فقد روى عن ابن عباس من طرق عدة أنها آخر آية نزلت وأن جبريل لما نزل بها على النبي قال له ضعها على رأس المائتين والثمانين من سورة البقرة وعاش النبي بعد نزول هذه الآية أيامًا معدودة هذا إلى ما في الآية من التذكير باليوم الآخر وهو أنسب بالختام.

وقد كان النبي صلوات الله وسلامه عليه يتخذ من هذا الشهر مغنمًا لتدارس القرآن وتلاوته وتعهد ما نزل منه بالحفظ والرعاية وكان

(١) آثرت ذكر الحديث بطوله لما فيه من العلم والحكمة والفقه وأصالة الرأي من سيدة النساء، وهكذا فلتكن النساء.

جبريل يشاركه في قراءته ومدارسته وكانت هذه المدارسة مبعث اليمن والبركة وزيادة البر بالفقراء والمحتاجين روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة » .

وفي العام الذي توفي فيه رسول الله عارضه مرتين وقد فهم النبي من ذلك أنه إيذان بانقضاء أجله ومجاورته الرفيق الأعلى ؛ وقد اتخذ الصحابة رضوان الله عليهم من النبي في قرائته القرآن وتعهده أسوة حسنة فأشربت قلوبهم بحب القرآن واستضاءت بنوره وامتلأت منه خشية ويقينًا وإيمانًا وكانوا يقرأونه بقلوب حاضرة وألسنة رطبة - بذكر الله فلا عجب إن كان الواحد منهم تفيض عيناه بالدمع إذا قرأ ويغيب عما حوله ويجد في قراءته حلاوة ولذة لا تدانيها لذة وقد كان الصديق رضي الله عنه من البكائين عند قراءة القرآن ولما خرج مهاجرًا إلى حيث يعبد الله في أرضه الواسعة قابله ابن الدغنة وقال له مثلك لا يخرج يا أبا بكر وجعله في جواره وأخذ عليه أن يعبد الله في بيته ، فبنى لنفسه مسجدًا في البيت وصار يقرأ القرآن بلسان الذاكر وقلب الخاشع

فكان إذا قرأ تكاد تتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وخافوا عليهم الفتنة من قراءة الصديق فكلمه ابن الدغِنة في ذلك ، فردَّ عليه جواره ، وقال : رضيتُ بجوار اللَّه سبحانه .

وهكذا كان الصحابة والسلف الصالح لا يفترون عن قراءة القرآن ويتخذونه المؤنس في الوحشة - والصاحب في الغربة - والمحدث في الخلوة وكانت بيوتهم ومساجدهم تدوي كدوي النحل من قراءته وقد وصفهم واصف فقال كانوا رهبانًا بالليل وأسودًا بالنهار فهلا يكون لنا معشر المسلمين قدوة حسنة في رسول الله وأصحابه والسلف الصالح في قراءة القرآن في هذا الشهر ومدارسته وتفهمه والعمل بما فيه وأن نجعل منه ربيعًا لقلوبنا فالقرآن حياة القلوب وضياء النفوس ولن تجد أغذى للقلوب ولا أشهى للنفوس منه وقد أفصح عن هذا المعنى من أوتي جوامع الكلم ﷺ فقال : « القرآن مأدبة الله فأتوا مأدبته ما استطعتم » .

ولن تجد في باب التعبير عن الغذاء القرآني أدق من هذا الحديث الجامع وإذا كان الناس يتطفلون على موائد الملوك وفيها غذاء الأجسام الفانية فما بالك بمائدة ملك الملوك وفيها الغذاء الروحي الشهي وفيها الخير والحق الجلي وهل هناك أشهى من

مادة القرآن وهو الذي لا تنقضي عجائبه ولا تفنى درره ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تمله النفوس وكلما كررته لا يزداد إلا جدة وطلاوة ولله در القائل :

تـزداد مـنـه عـلـى تـرداده مـقـة
وكـل قـول عـلـى الـتـرداد ممـلـول

ومن ذا الذي لا يجعل القرآن بين عينيه وفي قلبه وعلى لسانه وهذا هو الرسول يقول : « من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول « ألم » حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف » . رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح بل من ذا الذي لا يجعل القرآن همه في دنياه وبقرائته وكثرة ما يحفظ منه ينال الدرجات العلى في أخراه . روى أبو داود والترمذي أن رسول اللّه ﷺ قال : « يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة اقرأ واصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه » ، ألا رحم الله الزمان الأول الذي كان فيه القرآن هو المهيمن على أحوال الناس في دينهم ودنياهم وكان له في القلوب حب وضياء وعلى الألسنة ذكر ووفاء وفي بيوت الله والناس دوي يرفع أهل الأرض إلى السماء فهلا يعود ذاك الزمان ذلك ما نحب ونرجو وما ذلك على الله بعزيز .

(٤)

من وحي رمضان .. ليلة القدر[1]

يقول الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ١ - ٥].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ .

المراد بالمُنَزَّل هو القرآن الكريم ، وهو وإن لم يجر له ذكر ؛ إلا أن الله جعله لشهرته وفخامته كأنه أمر معلوم ظاهر لا يحتاج إلى سبق ذكر ولا إلى تصريح ، وقد تكون التكنية والإضمار في بعض المواضع - ومنها هذا - أدل على التفخم من التصريح والإظهار ، وقد أنزل الله القرآن الكريم من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، ثم كان جبريل ينزل به على النبي ﷺ منجمًا مفرقًا في بضع وعشرين أو على التحقيق في اثنتين وعشرين سنة ونصف ، وقد دلت على هذا النزول الأول الآثار الصحيحة عن حبر الأمة

---

(١) مجلة الحج ، السنة الثانية عشر ، الجزء ٢، شعبان ١٣٧٧هـ - فبراير ١٩٥٨م .

ابن عباس رضي الله عنهما ، ومثل هذا لا يقوله ابن عباس بمحض الرأي بل له حكم الرفع ، ولا تلتفت لمن أنكر هذا النزول الأول لأنه لم يستند في إنكاره إلى دليل ، وأول الآية التي معنا على تقدير : إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر ، ونحن مع حملنا الآية على النزول جملة واحدة - اتباعًا للآثار الصحيحة - لا نمنع أن يكون ابتداء نزوله على النبي في صبيحة ليلة القدر عام نزوله وتشريفه الأرض .

وليلة القدر هي من شهر رمضان قطعًا لقوله تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ وهي الليلة المباركة التي ذكرها الله بقوله : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ﴾ وسميت ليلة القدر ، إما من القدر بمعنى الشرف العظيم - ولا شك أنها ليلة مشرفة - معظمة لما لها من خصائص وفضائل .

قال الزهري رحمه الله : سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدرًا عظيمًا وثوابًا جزيلًا ؛ وبحسبها شرفًا أن الله أنزل فيها كتابًا ذا قدر على رسول ذي قدر لأمة ذات قدر ، وفيها ينزل ملائكة ذوو قدر ومنزلة ، وفيها ينزل الله الخير والبركة والمغفرة ، وقيل سميت ليلة

القدر بمعنى التقدير لأن الله سبحانه وتعالى يقدر فيها ما يشاء من شؤون العباد والبلاد إلى مثلها من السنة القابلة أي يظهر ما قضاه في الأزل ويطلع عليه ملائكته الموكلين به لا إنه سبحانه يقدره ابتداء فكل شيء قد قدر في الأزل ويشهد لهذا قول الله سبحانه : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ .

وليلة القدر من خصائص الأمة المحمدية على الصحيح وهي باقية إلى يوم القيامة وأما ما ورد في بعض الروايات الصحيحة من أن النبي صلوات الله وسلامه عليه خرج ليخبر بها أصحابه فوجد رجلين يتلاحيان فأخبرهم بأنها رفعت فالمراد رفع علم تعيينها من قلب النبي لا أن ذاتها وعينها رفعت ، وليلة القدر من شهر رمضان قطعًا وهي ليست ثابتة في ليلة واحدة على الصحيح بل تنتقل ، فسنة تكون في ليلة وسنة أخرى تكون في ليلة أخرى ، وهكذا وأرجى ليالي شهر رمضان هي العشر الأواخر منه وأرجى العشر هي أوتارها ، بهذا جاءت الأحاديث الصحيحة الكثيرة وبهذا نجمع بين الأحاديث المتعارضة في هذا الباب وفي الحديث الصحيح : « أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر » ، متفق عليه وفيها أيضًا عن

عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان » ، وفي صحيح مسلم : « التمسوها في العشر الأواخر في تاسعة تبقى في سابعة تبقى في خامسة تبقى » إلى غير ذلك من الأحاديث المتكاثرة في كتب السنة المعتمدة .

وقد كان النبي ﷺ يجتهد في العشر الأواخر أكثر من غيرها ففي الصحيحين عن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر » يعني اجتهد في العبادة .

وإنما أبهمها الله ولم يبينها لحكمة جليلة وهي أن يجتهد الناس في طلبها حتى يوافقوها ولا يتكلوا فيدعوهم ذلك إلى الاجتهاد والمواظبة على العبادة الشهر كله ، وهذا هو السر أيضًا في إخفاء ساعة الاستجابة يوم الجمعة وإبهام الصلاة الوسطى واسم الله الأعظم ونحوها وهل لهذه الليلة علامات وأمارات ؟ والجواب أنه قد جاءت بعض الأحاديث بذكر علامات لها والظاهر - والله أعلم - أن هذه العلامات كانت خاصة بأعوامها فمن ذلك ما روي في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال : « إني رأيت أني أسجد

في صبيحتها في ماء وطين » قال عبد الله بن أنيس : فرأيته صبيحة ليلة ثلاث وعشرين يسجد في الماء والطين كما أخبر رسول الله ﷺ .

وفي رواية أخرى أن هذه الأمارة تحققت في صبيحة ليلة إحدى وعشرين ومنها ما روى : « أنها ليلة سمحة بلجة لا حارة ولا باردة تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع ..» .

وأما ما يزعمه بعض الناس من علامات لها مبناها الأوهام والتخيلات فأمور لا سند لها من الشرع وما أنزل الله بها من سلطان .

ثم شرع الله سبحانه ينوه بشأنها ، ويعدد بعض فضائلها فقال : ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ أي ما أعلمك يا محمد ما ليلة القدر إن أمرها لعظيم وإن شأنها لجليل وإن فضائلها لكثيرة ، قال الفراء : كل ما في القرآن من قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ ، فقد أدراه وما كان من قوله : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يدره : وهنا قد أعلمه الله الليلة بخصائصها لا بعينها ، ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ .

يعني العمل والعبادة في هذه الليلة خير في الثواب والمغفرة من ألف شهر ليس فيها ليلة قدر ، روي أنه ذكر لرسول الله ﷺ رجل

من بني إسرائيل حمل السلاح في سبيل الله ألف شهر فعجب رسول الله ﷺ من ذلك وتمنى ذلك لأمته . وقال : « يا رب جعلت أمتي أقل الأمم أعمارًا وأعمالًا » فأعطاه الله سبحانه وأمته ليلة القدر العمل فيها خير من ألف شهر التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح ، وقال الإمام مالك في الموطأ من رواية ابن القاسم وغيره : سمعت من أثق به يقول أن رسول الله ﷺ أري أعمار الأمم قبله فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر ، وجعلها خيرًا من ألف شهر ، وقد استفاضت الأحاديث ببيان فضلها في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه » وفي مسند الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغل الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم » يعني خيرًا كثيرًا .

وقيام هذه الليلة يكون بالصلاة والذكر وتلاوة القرآن والدعاء مع تحسين النية وتطهير القلب . وقد سألت السيدة عائشة

رسول الله ﷺ فقالت إن وافيت - أي صادفت - ليلة القدر فماذا أقول ، قال : « قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » ، ثم بين الله فضيلة أخرى لليلة القدر فقال : ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي يكثر في هذه نزول الملائكة والروح وهو جبريل عليه السلام ينزل في هذه الليلة مع الملائكة فيسلمون على كل امرئ مسلم ، عن أنس أن النبي ﷺ قال : « إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة[٢] من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى » .

وفي هذه الليلة المباركة تنزل الرحمات وتستجاب الدعوات وتغفر الذنوب ، وتمحى السيئات ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي حتى طلوع الفجر قال عطاء : سلام على أولياء الله وأهل طاعته ، وقال الشعبي : هو تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر ، وقيل إن معنى السلام فيها أن الله لا يقدر في هذه الليلة ولا يقضي إلا السلامة - كما قال الضحاك .

---

(٢) الكبكبة : الجماعة المتضامنة من الناس وغيرهم .

إن ليلة هذه بعض فضائلها لجديرة أن يحرص على مصادفتها كل مؤمن يرجو الله والدار الآخرة ، فلتحرص أيها الأخ المسلم على قيام الشهر كله وتنزيه نفسك عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن فإنك - ولا شك - موافق - ليلة القدر ، وتأمل من بركاتها وخيراتها ما تشتهي وتريد من غفران الذنوب ورفعة الدرجات والقرب من الله رب العالمين وأدنى قيامها أن تصلي العشاء والفجر جماعة ثم يكون بعد ذلك من التفاوت والتفاضل في القيام ولتضع نصب عينيك قول الرسول الكريم : « يا أيها الناس أطعموا الطعام وأفشوا السلام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » .

* * *

(٥)

شهر الصبر والنصر[١]

لقد أظلنا شهر عظيم أوجب الله صيامه وحبب إلينا قيامه .. ذلكم هو شهر رمضان الذي أنزل الله فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، شهر تزكو فيه الأرواح وتسمو النفوس إلى معارج القدس .. وتصفد فيه الشياطين ، وتغلق أبواب النار وتفتح أبواب الجنة كما روى ذلك في الصحيحين عن المعصوم ﷺ .

ورمضان شهر الصبر كما وصفه بذلك من أوتي جوامع الكلم – عليه صلوات الله وسلامه –: الصبر عن المعاصي ، الصبر عن الشهوات ، الصبر على الطاعات ، أليس الصائم أو الصائمة يفطم نفسه عن المآكل والمشارب والمتع واللذائذ المباحة وهي على قيد الذراع منه ؟

أليس الصائم أو الصائمة يأخذ نفسه بالسمت الحسن والخلق

(١) هدية مجلة منبر الإسلام – كتاب تذكاري عن شهر رمضان ، العدد التاسع – السنة ٢٥.

العظيم والتنزه عن اللغو والرفث ، واللهو والعبث مصداقًا لقوله ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » . رواه البخاري .

وقد حدد النبي – صلوات الله وسلامه عليه – السلوك الفاضل الذي يجب أن يأخذ به الصائم نفسه فقال :

« إذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم » .. رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما .. وأي صبر أعظم من صبر الصائم عن الحلالات الطيبات . وعن المعاصي والشهوات .. إرضاءًا لله وامتثالًا لشريعته ، وطمعًا في ثوابه ومغفرته ؟

وأي صبر أجمل من أن يأخذ الصائم نفسه بهذا المنهج السوي في عبادة روحية تعلو به عن درك الحيوانية إلى درجة الملائكية .. فقد ورد في الحديث القدسي عن رب العزة – جل وعلا – أنه يقول للشاب الصائم : « أيها الشاب التارك شهوته لأجلي المفني شبابه لي ، أنت عندي كبعض ملائكتي » ..

فالصوم درس من دروس الصبر ، وتعويد المسلم والمسلمة عليه حتى يصير عادة وخلقًا .. ودرس أيضًا من دروس المراقبة لله

وتربية الضمير على الأمانة . ولذلك كان سرًا بين العبد وبين ربه ، وآجر الله عليه ما لم يؤجر على غيره .. وخصه من دون العبادات بالنسبة له ، وإن كانت الأعمال كلها إليه .. روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله – عز وجل : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به والصيام جنة – وقاية من النار أو المعاصي – فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث – أي يفحش – ولا يصخب – يرفع صوته – وإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إني صائم ، والذي نفس محمد بيده لخُلوف – أي رائحة الفم المتغيرة – فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح ، وإذا لقي ربه فرح بصومه » .. وفي رواية للبخاري : « يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي ، الصيام لي وأنا أجزي به والحسنة بعشر أمثالها » .

وشهر رمضان شهر النصر : ففي السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة كانت غزوة بدر الكبرى التي انتصر فيها الحق على الباطل والهدى على الضلال ، والخير على الشر .. التقت فيها فئتان : فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله . ودفاعًا عن العقيدة

وحفاظًا على الدين .. سلاحها الإيمان ، وعدتها الاعتماد على الله .. يحرصون على الموت أكثر من حرصهم على الحياة .. لم يقولوا لنبيهم كما قال بنوا إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا أنا هاهنا قاعدون .. وإنما قالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون .. وفئة أخرى كافرة باغية لا تدافع عن دين ولا عقيدة ، ولا عن مثل وغايات شريفة .. أذلها الشرك ، وعبادة الطواغيت وأبطرتهم النعمة .. واستبد بهم الفخر والخيلاء وغرهم كثرة العدد والعدد فلم تمض ساعة من نهار حتى غلبت الفئة المؤمنة الفئة الكافرة ، وفل سلاح الإيمان سلاح الكفر ، وصرعت القلة الكثرة وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول :

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ..

لقد أعد المسلمون للمعركة كل ما استطاعوا على ما كان بهم من قلة العدد : والعوز . في السلاح والظهر وضيق ذات اليد ،

ولكنهم عوضوا ذلك كله بالثقة بالله والاعتزاز بدين الله واستنزال النصر من الله .. فما فتيء النبي والمسلمون عن ذكر الله وعن الدعاء حتى نصرهم الله وصدق الله : ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ، وقال : ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .. وكان من نصر اللّه أن أمدهم بالملائكة تثبت قلوب المؤمنين وتقطع أعناق المشركين ، وتملأ قلوبهم رعبًا وخوفًا . ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ .

لقد كان المسلم يضرب بسيف الله ويرمي بعين الله وينظر : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

وفي رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، وفي اليوم العشرين منه كان فتح الفتوح في الإسلام : فتح مكة بلد الله الحرام وأعز الله الإسلام والمسلمين وأذل الشرك والمشركين .. وارتفعت راية التوحيد على منارة الكعبة البيت الحرام ... وعادت كما كانت في

عهد أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم .. وولده الذبيح إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ .. وبفتح مكة - معقل الشرك - دخل الناس في دين الله أفواجًا ، وصارت الجزيرة العربية مؤمنة موحدة ، وكانت نعمة عظمى تستوجب الشكر والحمد ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ .

ودخل المظلوم المنتصر هو وأصحابه مكة ، ولم ترق دماء تذكر ، ووقف العفو الحليم خطيبًا .. فكان مما قال : « ما تظنون يا أهل مكة أني فاعل بكم ؟ » فقالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ! » وصار عفو النبي الإنسان مثلًا سائرًا في الأولين والآخرين ولم يمض على فتح مكة نصف قرن من الزمان حتى امتدت رقعة الإسلام من المحيط إلى المحيط وصار العرب سادة الدنيا قرونًا من الزمان ، وحكموا العالم المعروف آنئذ بالإيمان والهداية والعلم والحكمة والعدل والرحمة .

« وبعد » فها نحن اليوم يظلنا شهر رمضان وقد تمكن الطغام الأرذال بالغدر والمكيدة ومعاونة قوى الشر والبغي والعدوان من احتلال أجزاء عزيزة علينا من الوطن العربي الكبير . والرجاء أن يكون رمضان شهر النصر على الأعداء .. كما كان شهر النصر في تاريخ الإسلام وأن يكون شهر الصبر شهر النصر ، فإن الصبر من أسباب الظفر والغلب وصدق الحق تبارك وتعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

اللهم كما نصرت المؤمنين - على قلتهم وضعف سلاحهم - في بدر .. فانصرنا على القوم الطغام المفسدين اليوم - فإنك ولي المؤمنين - وناصر الضعفاء والمظلومين الذين شردوا من أوطانهم . واغتصبت أموالهم ، وانتهكت أعراضهم .. اللهم إنا ندعوك بما دعاك به نبيك وعبدك محمد ﷺ حينما تحزب عليه الأحزاب « اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب وهازم الأحزاب أهزمهم وانصرنا عليهم يا أرحم الراحمين » .

❊ ❊ ❊



(٣)

حديث الصيام في القرآن

١- من هدي القرآن الكريم في الصيام

٢- تفسير بعض آيات الصيام

(١)

من هدي القرآن الكريم

في الصيام[1]

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، كان في مبدأ الإسلام إذا صلى الرجل العشاء الآخرة أو نام قبل العشاء حَرُمَ عليه الأكل والشرب والجماع إلى الليلة القابلة وحدث أن أحد الصحابة وهو قيس بن صرمة الأنصاري كان يعمل في أرض نهاره فلما حضر وقت

---

(١) مجلة الحج، السنة الحادية عشرة، الجزء ٣، رمضان ١٣٧٦هـ، إبريل ١٩٥٧م.

الإفطار لم يجد امرأته هيأت له طعامًا فانتظر ريثما تهيئه له فغلبه النوم فنام فلما هيأت امرأته الطعام جاءت إليه فوجدته نائمًا فتركته حتى أصبح الصباح فلما انتصف النهار اشتد به الجوع حتى غشي عليه فذكر ذلك للنبي ﷺ.

وحدث أيضًا أن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على امرأته بعد العشاء فوجد ريحًا طيبًا ووجدها متصنعة كما تفعل النساء فباشرها ولم يلبث أن ندم وبكى وذهب يشتكي إلى رسول الله ﷺ ومثل ذلك فعل أناس من الصحابة وجاءوا إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه معترفين ونادمين.

فاقتضت حكمة الحكيم وهو الرؤوف الرحيم بعباده أن يخفف عنهم فأحل لهم الأكل والشرب والجماع من المغرب إلى طلوع الفجر ونسخ ما كان قبل ذلك فهذا هو السبب في نزول قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾، والرفث هنا هو الجماع وقد بين الله سبحانه أن الحامل على هذا التخفيف في التشريع واليسر في التكليف هو ما بين الرجل وامرأته من شدة الملابسة والمباشرة فلا حائل ولا فاصل ولا رقيب ولا مانع فهو منها وهي منه بمنزلة الشعار والدثار وهو معنى قوله

تعالى : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ وفي هذا التعبير الموجز البالغ الغاية في البلاغة والإحكام إيماءً إلى أن كلاً من الزوجين ستر للآخر وكيف لا ؟ وكل منهما يعف الآخر ويقيه مزالق الشهوة ويحصنه ضد مثيرات الفتنة والإغراء وإن من العَنت والحرج تكليف شخصين بهذه المنزلة وعلى هذا الحال بعدم المباشرة وإفضاء كل منهما إلى الآخر طوال شهر رمضان ولا سيما المرأة – كما قال الله – سكن النفس وصدق الله : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ولن تجد – أيها العربي المتذوق للبلاغة – أفصح ولا أبلغ من هذا التعبير القرآني في وصف العلاقة التي تكون بين الرجل وزوجه أما الذين يتناولون القرآن الكريم بأذواق أعجمية فهم بمعزل عن إدراك ما في هذا التعبير الفائق من الأسرار والجمال الفني .

ولهذا كله أعذر الله سبحانه وتعالى من وقع في المحظور وتاب عليه وهذا هو قوله تعالى : ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ، والمراد به الولد فإن الغاية العظمى

من الزواج هو النسل حتى يبقى هذا النوع الإنساني لا قضاء الشهوة وإشباع الرغبة الجنسية فحسب .

ولعل في التعبير « بتختانون » الدالة على التكلف والتعمل بدل « تخونون » ما يشير إلى ما كان يجده السلف الصالح عند الوقوع في محظور من حرج ومشقة ومجاهدة نفسية وصراع باطني بين داعي الحق والشرع وداعي الهوى والشهوة ثم قال تعالى : ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ المراد بالخيط الأبيض بياض النهار والمراد بالأسود سواد الليل وقد بين الله الخيط الأبيض بقوله : ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ ، وسكت عن بيان الخيط الأسود اكتفاءً ببيان أحد المتقابلين عن الآخر وإيثارًا للإيجاز حيث يحسن الإيجاز وقد حسن هذا الاكتفاء وجعله قد صادف المحز أن المطلوب معرفته في هذا المقام هو الفجر ، والمراد به الفجر الصادق وهو الذي ينتشر ضوءه في الأفق ويستطير ، بخلاف الفجر الكاذب وهو الذي يمتد ضوءه طولًا لا عرضًا روى ابن جرير بسنده عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان قال رسول الله ﷺ : « الفجر فجران فالذي كأنه ذنب السرحان لا يحرم شيئًا وإنما هو المستطير الذي يأخذ الأفق فإنه يحل

الصلاة ويحرم الطعام » ، وقد أشكل فهم المراد من الآية على بعض الصحابة حتى أفصح له النبي ﷺ عن المراد منها ، ففي الصحيحين عن عدي بن حاتم قال : لما نزلت هذه الآية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض قال فجعلتهما تحت وسادتي قال فجعلت انظر إليهما فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت فقال : « إن وسادك إذًا لعريض إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل » .

قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ فالصائم عليه أن يكف نفسه عن المآكل والمشارب وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس وقد روى في الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « إذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا فقد أفطر الصائم » .

وقد استطرد الله سبحانه من بيان أحكام الصيام إلى بيان بعض أحكام الاعتكاف في الإسلام وهو النهي عن مباشرة المعتكف

لزوجته أثناء اعتكافه ليلًا أو نهارًا والجماع حرام في حال الاعتكاف ويفسد به الاعتكاف أما ما دون الجماع من المباشرات كالقبلة واللمس بالشهوة فمكروه ولا يفسد به الاعتكاف عند أكثر أهل العلم وهو أظهر قولي الشافعي وقالت طائفة يبطل بها اعتكافه وهو قول مالك ، وأما اللمس الذي لا يقصد به التلذذ فلا يفسد به الاعتكاف إجماعًا وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كان رسول الله ﷺ إذا اعتكف أدنى إليّ رأسه فأرجله وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان .

والاعتكاف معناه الإقامة في المسجد للعبادة وهو شعيرة من شعائر الإسلام وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر رمضان كما ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ثم اعتكف أزواجه من بعده » . أخرجه الشيخان .

وفي الاعتكاف صفاء النفس وتزكية الروح وتخلية القلب من شواغل الدنيا وزينتها وانقطاع إلى الله سبحانه رغبة في الوصول إليه وما أشد حاجة كل إنسان إلى هذه الفترة التعبدية التي تزيل

صدأ النفس وتخلصها من العلائق المادية وشوائبها وتصل بها إلى معارج القدس والاعتكاف إلى ذلك يعتبر فترة استجمام للجسم أيضًا من العناء والعمل أغلب شهور العام ولا يسع أحدًا أن ينكر الصلة القوية بين الراحة النفسية والانتعاش الجسماني.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي هذه المذكورات من محارم الله ومنهياته حدود الله فلا ينبغي القرب منها فضلًا عن مجاوزتها وفي النهي عن قربانها نهى عن انتهاكها بطريق أبلغ ومن يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه فلهذا آثر الحق جلت حكمته التعبير بلا تقربوها في هذا المقام.

كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعني كما بين لكم ما ذكر من الأحكام السالفة والحلال والحرام يبين لكم آياته المشتملة على الأحكام والعقائد والآداب والفضائل والمواعظ والزواجر لكي تتقوا المعاصي والوقوع في الآثام فتنجوا من العقاب وتدخلوا الجنة دار السلام وفقني الله وإياك إلى الطاعات ووقانا شرور الزلل والعصيان.

* * *

(٢)

تفسير بعض آيات الصيام[1]

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ .

الشــــرح والبيــــان

ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة لهذه الآيات حكم الوصية للوالدين والأقربين؛ وهنا ذكر حكمًا آخر من أحكام الإسلام وأصلًا من أصوله وهو الصيام فالآيات بينها رابطة عامة وهي مطلق ذكر أحكام يحتاج إليها البشر في دينهم ودنياهم والصيام فُرض بالمدينة وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة ؛ وفيها صام النبي والمسلمون أول رمضان .

---

(١) مجلة الحج ، العدد الثالث ، السنة الخامسة ، غرة رمضان سنة ١٣٧٠هـ ، يونيه سنة ١٩٥١م .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ كُتِبَ : فُرِضَ ، والصيام في اللغة : الإمساك يقال صام عن الكلام أي أمسك وسكت ومنه قوله : ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ ، وصامت الدابة قامت ولم تعتلف قال :

خيل صيام وخيل غير صائمة
تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وفي الشرع الإمساك عن مفطرات من أكل وشرب وجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، وكماله وتمامه باجتناب المحظورات والمحرمات وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه من أجله » ، وقال : « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » ، والمراد به الصائم الذي يمسك عما أحل الله ويقع فيما حرم الله ، وفي تصدير الآية بخطاب المؤمنين ترقيق للقلوب المؤمنة وحمل لها على أخذ ما شرعه الله بعزم وقوة فالمؤمنون هم أحق الناس بالإذعان والقبول وقد أفادت الآية أن الصوم شريعة قديمة شرعها الله لمن كانوا قبلنا من الأنبياء والأمم

السابقة وفي هذا إشارة إلى أصالة هذا التشريع وتوافق الأديان فيه وأن الصوم ضروري لتزكية النفوس وإصلاح حال المجتمع ، وظاهر الآية أن التشبيه إنما هو في أصل الوجوب والتشريع من غير نظر إلى الوقت والكيفية ، وإلى هذا ذهب كثير من العلماء ، وذهب البعض إلى أن التشبيه في الآية يشمل الوقت والكيفية ، وذكروا في هذا أن الله كتب على اليهود والنصارى صوم شهر رمضان كما كتب علينا فغيروا فيه وزاد أحبارهم عليه عشرة أيام ثم زادوا عليه عشرة أخرى حتى وصل إلى خمسين يومًا ثم صعب عليهم في الحر فنقلوه إلى الربيع ، والقول الأول هو الأظهر والأسلم ، ثم قال تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي فرض عليهم ذلك رجاء منكم أن تتقوا أو لكي تعدوا أنفسكم وتهيئوها للتقوى ، والمراد بالتقوى تقوى الشهوات والمعاصي وتقوى العلل والأمراض وتقوى المهلكات التي تقضي على الأمم وتذهب بوحدة الجماعات وتسبب العداوة والبغضاء ، وفي اتقاء كل ذلك تقوى الله سبحانه ، وفي هذه الكلمة على قصرها إشارة إلى حكم الصوم وفوائده الجمة التي تعود على الصائم والمسلمين بالخير ، وإليك بعض الحكم والفوائد بإيجاز :

إن في الصوم تعويدًا للإنسان على قوة الإرادة وكبح جماح نفسه الشهوانية فلا يصير أسيرًا لها ولا عبدًا لأهوائه ومتى تربت قوة الإرادة في الإنسان هانت عليه الصعاب واستسهل المشقات وأمكنه أن يشق لنفسه طريقًا قويمة كريمة في هذه الحياة فالصوم الحقيقي يجعل للإنسان سيطرة تامة على نفسه الأمارة بالسوء ومن ثم يوجه سلوكه نحو طريق الشرع والحق والخير ، وفي الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : « يا معشر ، الشباب من استطاع منكم الباءة (مؤن النكاح) فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء » أي يحول بينه وبين الوقوع في الشهوات والآثام ، ومن فوائد الصوم أنه إصلاح للجسم فإن أساس الصحة تنظيم الأكل والشرب والتناول منها بقدر الحاجة ، وفي الحديث الشريف : « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » . وفي الحِكَم المأثورة : « المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء »[1] .

وقد بيّن الطب الحديث ما للصوم من جليل الأثر في تحسين الصحة وتقوية المعدة باستجمامها طيلة هذا الشهر والمساعدة

(١) هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ، وليس بحديث كما اشتهر على ألسنة العامة ، وغلط بعض أهل العلم فذكروه في كتبهم على أنه حديث .

على الوقاية من بعض الأمراض كأمراض الكلى والحصوات البولية وارتفاع ضغط الدم وأمراض الكبد والقلب وغيرها، ومن آثار الصوم الطيبة أن الصائم إذا وجد من نفسه ألم الجوع والعطش رق قلبه واستولت الرحمة على نفسه فيجد من نفسه وازعًا وجدانيًا يحمله على العطف على الفقراء والمحتاجين الذين يقضون الأيام والليالي على الطوى والجوع بل يقضون سنتهم وهم محرومون من الطيبات التي أحلها له وبذلك يوجد مجتمع فاضل يسوده التراحم والتواد والتعاطف ولكون الصوم من الأسرار وأمانة بين العبد وربه خصه الله من بين أعمال الإنسان بمزيد الفضل فقال فيما يرويه عنه رسوله: « يقول الله تبارك وتعالى كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به » الحديث.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي قليلات والعرب من شأنها أن تعبر عن القليل بالمعدود لأن القليل من شأنه أن يعد والمراد بهذه الأيام شهر رمضان وقيل المراد بها ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عاشوراء ثم نسخ ذلك بفرض شهر رمضان ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ بنى الله سبحانه تشريعاته على اليسر وعدم الحرج قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ

فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ وقاعدة التيسير ورفع الحرج من قواعد الشريعة الإسلامية فلا عجب أن أباح الله للمريض والمسافر الفطر في شهر رمضان وقضاء ما أفطراه من أيام أخر، والمراد بالمرض الذي يحتاج فيه الفطر هو ما يحصل للإنسان بسبب الصوم من ضرر في نفسه أو عضو من أعضائه أو زيادة العلة أو مشقة خارجة عن طاقته أما ما عدا ذلك من الأمراض الهينة كعثرة قدم أو زكام أو صداع خفيف مثلًا فلا يباح معها الفطر وقد توسع بعض العلماء فأباح الفطر من أي مرض كان والأول هو الصحيح والذي ذهب إليه جمهور العلماء، وأما السفر فقد اتفق فيه على سفر الطاعة أما سفر المعصية ففيه خلاف بين الأئمة منهم من أباح فيه الفطر ومنهم من لم يبح وقد اختلف الأئمة في المدة التي تشترط في السفر المبيح للفطر فقيل مسيرة يوم وليلة وقيل مسيرة يومين وعليه الإمام الشافعي وأحمد وذهب آخرون إلى أنه مسيرة ثلاثة أيام وإليه ذهب الإمام أبو حنيفة وغيره والمراد بالسير سير الوسط كسير الراجل أو البعير مع الراحة في المقيل والليل فلو قطعت الطائرة أو القطار مسافة السفر التي يرخص فيها الفطر في ساعة من نهار فللمسافر

بهما هذه الرخصة أيضًا وقد روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال : « سافرنا مع النبي ﷺ في رمضان فلم يعب الصائم على المفطر والمفطر على الصائم » وأما أيهما أفضل الصوم أم الفطر ؟ فذهب الإمام أبو حنيفة ومالك إلى أن الأفضل هو الصوم وذهب الشافعي وأحمد والأوزاعي إلى أن الأفضل الفطر ، وقيل أفضلهما أيسرهما على المسافر ثم إن قضاء ما أفطره المريض والمسافر يجوز أن يكون متتابعًا وأن يكون مفرقًا .

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ معنى يُطيقونه أي يقدرون عليه ، والفدية نصف صَاع من بر أو صَاع من شعير وإلى هذا ذهب الإمام أبو حنيفة ، وقيل مُد وهو مذهب أهل الحجاز ثم إن التخيير بين الصوم والإفطار مع الفدية كان في مبدأ الأمر حتى لا يشق عليهم الصوم فلما مرنوا عليه وألفوه جعل الله ذلك فرضًا لازمًا على كل قادر ونسخ التخيير بقوله فيما بعد : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ يدل على ذلك ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن سلمة بن الأكوع قال لما نزلت هذه الآية : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ الآية كان من شاء منا صام ومن شاء أفطر ويفتدي ، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها وهي :

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وقيل أنها محكمة غير منسوخة وأنها في الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة اللذين يطيقان الصوم بمشقة وتكلف فهذان رخص لهما الإفطار والإطعام عن كل يوم مسكينًا ومعنى يطيقونه على هذا يتحملونه بمشقة وعسر ؛ وروي هذا القول الثاني عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ومما يلحق بالشيخ الكبير والمرأة الكبيرة الحبلى والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو أولادهما أفطرتا وأطعمتا بدل كل يوم مسكينًا وذهب الشافعي وأحمد إلى أنهما يفطران ويطعمان ويقضيان وذهب أبو حنيفة وغيره إلى أنهما يفطران ويقضيان ولا إطعام عليهما ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ أي من تطوع بأن أطعم بدل يوم مسكينين أو أكثر أو زاد في المقدار بأن أعطى بدل الصاع صاعين أو بدل المد صاعًا فتطوعه خير له وأزكى ثوابًا عند الله .

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وصيامكم خير لكم إن كنتم تعلمون ما في الصوم من الفضائل والفوائد المهمة الدينية والدنيوية وما أعده الله للصائمين من جزيل الثواب وحلول منازل الرضوان والمخاطب بقوله تعالى : ﴿وَأَن

تَصُومُواْ﴾ أما المخيرون بين الصوم والإفطار مع الفدية فبعد أن خيرهم له بيّن لهم أن الصوم خير لهم وأفضل وأما المرضى المسافرون المُرَخَصْ لهم في الفطر بعد أن بيّن الله لهم الرخصة رغبهم في الأفضل وهو الصوم هذا وقد ورد في فضل الصوم والصائمين أحاديث منها قوله ﷺ : « الصيام جُنة فإذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم والذي نفسي بيده لخلوف[1] فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح وإذ لقي ربه فرح بصومه » . رواه البخاري ومسلم ومنها : « أن في الجنة بابًا يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم » ومنها ما رواه البخاري ومسلم : « من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه » فهلموا أيها المسلمون إلى الصيام تفوزوا بالغفران وتدخلوا الجنة بسلام .

* * *

(١) الخلوف بضم الخاء : رائحة الفم المتغيرة .



(٤)

الصوم في السنة

١- حديث الصيام في السنة النبوية

٢- منهج الصائم في الصوم من السنة

(١)

حديث الصيام في السنة النبوية[١]

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما؛ إذا أفطر فرح، وإذا لقي الله فرح بصومه». وبنحو ذلك. رواه مسلم فهو متفق عليه.

أبو هريرة:

هو الصحابي الجليل وقد أختلف في أسمه وأسم أبيه على أقوال كثيرة جدًا، وأصحها عبد الرحمن بن صخر، وهو دوسي، لقب بذلك لهرة كان يضعها في كمه، أسلم سنة سبع من الهجرة، وكان كثير الملازمة لرسول الله فسمع منه ما لم يسمع غيره ورأي ما لم ير غيره، فلا عجب، وقد كان متفرغًا للأخذ عن

(١) مجلة الحج، العدد الثالث، رمضان سنة ١٣٧٢هـ.

رسول الله أن كان من المكثرين للرواية ، وقد قال البخاري : روى عنه نحو من ثمانمائة رجل أو أكثر من أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم ، ومروياته منها : ما هو عن النبي سماعًا ، ومنها : ما هو عن بعض الصحابة عن النبي ، وقد أفصح لنا أبو هريرة رضي الله عنه عن السر في إكثاره من الرواية بقوله فيما رواه البخاري عنه أن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثًا ، ثم يتلو قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ إلى قوله : ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ .

إن إخواننا من المهاجرين - كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وأن إخواننا من الأنصار - كان يشغلهم العمل في أموالهم ، وأن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ لشبع بطنه يحضر مالا يحضرون ويحفظ مالا يحفظون ، ولما أشتكى إلى النبي نسيانه بعض أحاديثه ، قال له النبي ﷺ : « أبسط رداءك » . قال : فبسطته ، فغرف بيديه ، ثم قال : « ضُمه » ، فضممته فما نسيتُ شيئًا بعد ذلك ، وقد اسْتُهْدفَ هذا الصحابي للطعن قديمًا وحديثًا من الملاحدة والمستشرقين وأضرابهم من الكتاب المسلمين وهو مما رمي به براء ، وقد استندوا في طعنهم إلى تحريف بعض

الروايات عن وجهها الصحيح وإلى شُبه واهية لم تثبت أمام البحث والتحقيق، وعسى أن تكون لنا عودة لتبرئة ساحة هذا الصحابي الراوية.

قال الله عز وجل: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به» في نسبة هذا الكلام إلى الله عز وجل ما يدل على أن النبي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾. وفي بعض الروايات عدم التصريح بنسبة ذلك إلى الله سبحانه؛ فلتحمل على هذه الرواية التي فيها التصريح، ويكفي في فضل الصوم وتشريفه أضافته إلى الله سبحانه في هذا الحديث، ومن المعروف أن الأعمال كلها لله، ويقصد بها وجهه، وأنه هو المجازي على الأعمال عظيمها وحقيرها، وإذا كان الأمر على ما ذكرنا فلم خص الله الصوم بإضافته إلى نفسه والمجازاة عليه؟ السر في ذلك: أن الصوم عبادة لا يدخلها الرياء العملي، إذ هو من أعمال القلوب، وسر بين العبد وبين ربه ولا يطلع عليه إلا الله سبحانه، ألا ترى إلى الصلاة، والزكاة، والحج، فأنها قد يدخلها الرياء بمجرد أفعالها وأدائها ولا كذلك الصوم، هذا إلى أن الصوم لا يعلم كنه ثوابه ومقداره إلا الله سبحانه؛ فالأعمال تضاعف من

عشر إلى سبعمائة إلى ما شاء الله ؛ إلا الصيام ، فإن الله يثيب عليه بغير حساب ، ويشهد لهذا رواية الموطأ للإمام مالك : « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله ». قال الله : « إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به » فلذا خصه الله بالإضافة إلى نفسه وأسند المجازاة عليه إلى ذاته جل وعلا .

« والصيام جنة » الصيام لغة الإمساك مطلقًا ، ويقال لمن أمسك عن الكلام صائمًا ، قال تعالى : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ فهو يشمل الإمساك عن الطعام والشراب وغيره وفي الشرع الإمساك عن الأكل والشرب والجماع وسائر المفطرات ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، والصوم درجات ، أدناها الاقتصاد على الكف عن المفطرات ، وهو صوم العامة وأوسطها أن يضم إلى ما ذكر كف الجوارح عن المعاصي والحرمات ، وهو صوم الخاصة ، وأعلاها أن يضم إلى ما سبق كف القلب عن الوساوس ؛ وعن الغفلة عن ذكر الله ؛ وهو صوم خاصة الخاصة ، فليختر المسلم الصادق لنفسه ما يحلو له ويقربه من الله ويحل عليه رضوانه .

« جُنة » أي وقاية وستر ، والصوم وقاية من النار ومن الشهوات

ومن المعاصي ، ووقاية من الأمراض والعلل ؛ بالنسبة للأفراد والجماعات ، فالكلمة على إيجازها تشير إلى حِكَم الصوم وفوائده الدينية والدنيوية ، خلقية كانت أم صحية أم اجتماعية فهي من الكلم الجوامع ، والمراد بالصوم الذي أراده الله ورسوله وهو الصوم الكامل الذي يفطم النفس عن المآكل والمشارب وعن المحرمات والمحظورات ، وهذا الصوم هو الذي يؤتي أكله ويثمر ثمرته ، أما من كف نفسه عن المآكل والمشارب ولم يكف عن الإيذاء ونهش الأعراض وانتهاك الحرمات ، فقد أحبط ثواب صومه وأجهد نفسه في غير طائل ، وهذا هو الرسول ﷺ يقول : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » رواه البخاري ، وفي الحديث أيضًا « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر » رواه ابن ماجه ، وهو الصائم الذي يمسك عما أحل الله ويفطر على ما حرم الله كالغيبة ؛ والسعي بين الناس بالإفساد ، والجمهور على أن الكذب والغيبة والنميمة لا تفسد الصوم ولكنها تنقص ثوابه ؛ وقد تحبطه ، وحكي عن السيدة عائشة وبه قال الأوزاعي : أن الغيبة تفطر الصائم وتوجب عليه

قضاء اليوم ، وأفرط ابن حزم فقال : يبطله كل معصية من متعمد لها ذاكرًا لصومه سواءً كانت قولًا أم فعلًا ، ولما كان من ثمرات الصوم تهذيب الأخلاق قال :

« فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب » يرفث بضم الفاء وكسرها ، ويصخب بفتح الخاء ، والرفث الكلام الفاحش ويطلق على الجماع وعلى مقدماته وعلى ذكره عند النساء ، ويحتمل أن يراد الأول وأن تراد كلها بالنهى ، والصخب رفع الصوت بالسفه والسيئ من القول ، فالله يريد من الصائم أن يكون مثالًا للخلق العالي والعفة في القول والفعل ولطف المعاملة وحسن المعاشرة ، والرفث والصخب ؛ وأن كانا مذمومين للصائم وغيره إلا أنهما في الصوم أشد حرمة وأعظم وزرًا .

« فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم » السباب : الشتم والرمي بالسوء ، والمقاتلة : إما على معناها الحقيقي ، وإما بمعنى اللعن ، فإن أريد بها المعنى الحقيقي فالمعنى إن تهيأ أحد لمقاتلته فليقل له إني صائم كفًّا لنفسه عن المقابلة بالمثل ودفعًا لغائلة مقاتله ؛ عسى أن يرتدع وتهدأ ثورته وإلا دفعه بالأخف فالأخف لأن الدفاع عن النفس واجب ، وأن أريد بها معنى اللعن فالمراد أن

لا يعامل الصائم من سابه أو لعنه وشتمه بمثل عمله بل يعفو ويصفح ويقول له « إني امرؤ صائم » وفي بعض الروايات فليقل إني صائم مرتين وفائدة التكرار التأكيد وقوة الزجر ، والأولى للصائم أن يقولها بقلبه ويظهرها على لسانه ، عسى أن يرتدع الساب الشاتم ويرجع عما صدر منه وهذا غاية السلم والمسالمة ومقابلة السيئة بالعفو والصفح ، والمفاعلة هنا ليست على معناها الحقيقي الذي يقتضي حصول السباب والقتال من جهتين ، بل المراد بها حصول الفعل من جانب واحد مثل قولك عالجت الأمر وعافاه الله أو المراد التهيؤ لذلك كما ذكرنا لأن الصائم مأمور بنص الحديث بأن يكف نفسه عن السباب والشتم فكيف يقع ذلك منه .

« والذي نفس محمد بيده » المراد به الله سبحانه ، إذ النفوس كلها بيده يقبضها إذا شاء ويرسلها إذا شاء ، وهو قسم والمراد به توكيد ما بعده من الكلام وهو :

« لخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » الخُلوف بضم الخاء ولا يجوز فتحها ، وقال الخطابي : أنه خطأ والمراد به تغير رائحة فم الصائم لخلاء معدته من الطعام ، فهذه الرائحة الكريهة أطيب عند الله من ريح المسك ، وهذا إن دل

على شيء فإنما يدل على فضل الصائم المخلص في عبادته ومنزلته عند ربه يجعل ما جرت العادة بالتقزز منه من الطيب بمكان فالله راض عن صاحبه ومثيبه على عبادته أفضل الثواب وأجزله ، وجمهور العلماء على أن هذه الاستطابة إنما هي في الدنيا ، ويؤيد ذلك ما رواه البيهقي في « شعب الإيمان » من حديث مرفوع في فضل هذه الأمة في رمضان « وأما الثانية فأن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك » وذهب بعض العلماء كالعز بن عبد السلام إلى أن ذلك في الآخرة وأن سمة الصائمين يوم القيامة ريح يفوح منهم أطيب من ريح المسك جزاء على تغير أفواههم في الدنيا بسبب الصوم ؛ كالشهيد الذي يأتي يوم القيامة بجروحه تشخب دمًا اللون لون الدم والريح ريح المسك ...

وقد أفصحت بعض الروايات عن السبب في استحقاق الصائم هذه الكرامة بقوله تعالى : « يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي » فمن ترك كل ذلك مخلصًا لله ممتثلًا لأمره راغبًا في رضاه ؛ فقد حاز هذا الفضل وظفر بهذا التشريف ، وقد أختلف الأئمة في استياك الصائم ، فذهب الإمامان أبو حنيفة ومالك

رحمهما الله إلى جواز استياك الصائم بل، واستحبابه، قبل الزوال، وبعده عملًا بعموم أحاديث السواك وإنها شاملة للصائم وغيره إلا أن مالكًا كره الاستياك بالسواك الطري للصائم لما يتحلل منه وإلى جوازه للصائم رطبًا كان السواك أم يابسًا، ذهب الإمام البخاري في صحيحه عملًا للأحاديث على عمومها وإطلاقها وسلك في الاستدلال على ذلك مسالك دقيقة تدل على فقه وفهم عظيمين، وذهب الإمام الشافعي وأحمد إلى كراهية الاستياك للصائم بعد الزوال جمعًا بين أحاديث استحباب السواك وحديث الخلوف لأن الخلوف إنما يكون غالبًا في نصف النهار الأخير وعبارة الشافعي «أحب السواك عند كل وضوء بالليل والنهار إلا إني أكرهه للصائم آخر النهار من أجل الحديث في خلوف الصائم» فحد أصحابه ذلك بما بعد الزوال، وقيل لا يوقت بوقت معين، بل يترك الاستياك متى عرف أن تغير فمه ناشئ عن الصيام وذلك يختلف باختلاف أحوال الناس وباختلاف بعده عن الطعام وقرب عهده به لكونه لم يتسحر وتسحر مع الإقلال ووفق بعض العلماء بين أحاديث السواك وجوازه للصائم وحديث الخلوف بتوفيق حسن فقال: «السواك مطهرة للفم فلا يكره

كالمضمضة للصائم لا سيما وهي رائحة تتأذى منها الملائكة فلا تترك هنالك ، وأما الخير ففائدته عظيمة بديعة ، وهي أن النبي ﷺ إنما مدح الخلوف نهيًا للناس عن تقزز مكالمة الصائمين بسبب الخُلوف لا نهيا للصوام عن السواك ، والله غني عن وصول الرائحة الطيبة إليه فعلمنا يقينًا أنه لم يرد بالنهي استبقاء الرائحة وإنما أراد نهي الناس عن كراهتها ؛ قال : وهذا التأويل أولى لأن فيه إكرامًا للصائم ولا تعرض فيه للسواك فيذكر أو يتأول » وهو يؤيد ما ذهب إليه أبو حنيفة ومالك والبخاري على أني أقول إذا كان الخلوف من الجوع لا يؤثر السواك في إزالته غالبًا لأن الرائحة حينئذ لا تكون من الأسنان بل من المعدة ومثل هذه الحالة لا يؤثر الإستياك في إزالتها وهذا يرجح ما ذهب إليه المجوزون مطلقًا .

« للصائم فرحتان يفرحهما » الأصل يفرح بهما فحذف الباء ووصل الفعل بالضمير ومثل ذلك جائز في كلام العرب توسعًا « إذا أفطر فَرِحَ » في رواية مسلم رحمه الله « فرح بفطره » الفرح فرحان فرح طبيعي يحصل عند الفطر بزوال جوعه وعطشه ، وفرح مكتسب يحصل للصائم عند الفطر من حيث أنه تمام صومه وخاتم عبادته وتخفيف من ربه ومعونة على مستقبل صومه ؛

وقصارى أمر هذا الفرح أنه يحصل لوقوع العبادة على حسب ما ينبغي ويريد الشارع الحكيم ، والأولى حمل الفرح على ما هو أعم من ذلك وأحوال الناس مختلفة ومقاماتهم متفاوتة ، فمنهم من كان يكون فرحه مباحًا وهو الطبيعي ، ومنهم من يكون فرحه مستحبًا وهو المكتسب .

« وإذا لقي ربه فرح بصومه » أي فرح بثوابه وجزائه الذي أعده الله سبحانه له وليس أحب إلى الإنسان وأدخل للسرور على نفسه من أن يزرع فيجد الزرع زاكيًا ناميًا ، والثمرة وافرة شهية . وهكذا الصائم زرع عملاً صالحًا طيبًا ، فوجد ثوابًا ناميًا ، وعاقبة كريمة ومآلا حسنا عند من لا يضيع عنده مثقال ذرة من إيمان وعمل صالح ويوفي الصائمين أجرهم بغير حساب .

وبعد : فهذه – أيها المسلم – فضائل الصوم فإن أنت وقفت عند حدود ربك وما شرعه لك وجمعت إلى الظاهر طهارة القلب وتنزيه الجوارح عن النقائص ، فقد حظيت بالأجر والرضوان ، وكنت مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا .

* * *

(٢)

منهج الصائم في الصوم من السنة[1]

لقد فرض الله الصوم على الصائمين ، وجعله فريضة محكمة باقية إلى يوم القيامة ، وقد ثبتت فرضيته بالكتاب الكريم قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ – الآية – وقد تكفلت الآيتان بعد الفرضية ببيان بعض أحكام الصيام من الترخيص للمريض والمسافر بالفطر والقضاء من أيام أخرى وغيره من الأحكام .

وكذلك ثبتت فرضيته بالسنة بالحديث الصحيح المتفق عليه عن النبي ﷺ قال : « بُني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج بيت الله الحرام » وأجمع المسلمون على الفرضية لم يشذ في ذلك إلا المارقون من الدين .

ولما كانت السنة شارحة للقرآن ، ومبينة له : تفسر مجمله ،

---

(١) مجلة الحج السعودية ، العدد الثالث ، السنة ٢٤ .

وتقيد مطلقه ، وتخصص عامه ، وتوضح غامضه وتزيل مشكله ، وتستقل بالتشريع في كثير من الأحيان فقد ذكر فيها كثير من الأحكام التي لم ينص عليها في القرآن ، وقد شاء الله أن يأتي القرآن على هذا الإيجاز ، وعلى الوضع الذي أراده الله تبارك وتعالى تخفيفًا على الناس ، ورحمة بهم ، لأن الله سبحانه لو ذكر كل شيء في الكتاب الكريم لكان أكثر مما هو عليه أضعافًا مضاعفة ، ولو كان كذلك لشق على الناس حفظه واستظهاره ، بل لتعذر عليهم ذلك فكان من حكمة الله البالغة أن يجيء الوحي المتلو على هذا الترتيب والوضع والإيجاز ، ووكل إلى نبيه بيان ما يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم ، ودينهم ودنياهم . قال عز شأنه : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل : ٤٤] فجاء الوحي الغير المتلو وهو السنة وافيًا ومكملًا لكل ما يحتاج إليه الناس ، وأمر الله الأمة أن تأتمر بما يأمرها به نبيها ، وأن تنتهي عما نهى عنه ، وأن تهتدي بهديه وتتأدب بآدابه ، وتتخلق بأخلاقه قال عز شأنه :﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر : ٧] ، وقال : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] وقال : ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ

أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء : ٥٩] . إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة .

وقد وضع النبي ﷺ منهجًا واضحًا للصائم من ناحية سلوكه وآدابه ، وفطوره ، وسحوره وعبادته ، وقيام ليله إلى غير ذلك وإليك تفصيل هذا :

١ - فمن ذلك بيانه للمنهج السلوكي الذي ينبغي أن يكون عليه الصائم الذي يرجو قبول صومه ، والثواب عليه من الله فالصائم لا يصخب ، ولا يسفه ، ولا يسب ، ولا يؤذي أحدا بلسانه ولا بجوارحه ففي الحديث الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال النبي ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » وقد زاد البخاري في الأدب « والجهل » وكذلك في رواية للإمام أحمد ، والمراد بقول الزور الكذب بكل أنواعه : في الحديث ، وفي الشهادة ، ونحوهما ، والجهل : السفه ، وفي الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الصيام جنة ... فلا يرفث ، ولا يجهل ، وإن أمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إني صائم« مرتين » والذي نفسي بيده لخلوف[١] فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك يدع طعامه وشرابه من أجلي ، الصيام لي وأنا أجزي به .. » .

وفي الحديث الآخر « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش »[٢] وهو الصائم الذي يصوم عن الطيبات الحلالات ، ولكن يسفه على الناس ويؤذيهم ، ويغتاب الناس ويفسد فيما بينهم ، فمن فعل هذه الموبقات وغيرها فقد أتعب نفسه وأجهدها بلا طائل .

٢- كذلك على الصائم أن يكون في هذا الشهر جوادًا كريمًا معطاء ، فيجود على الفقراء والمساكين ، ويطعم الصائمين ففي الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه بسنده أن ابن عباس قال : « كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل - عليه السلام -

(١) الخلوف بضم الخاء : رائحة الفم المتغيرة .

(٢) رواه ابن ماجه في سننه .

يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبي ﷺ القرآن فاذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة » وهذا لفظ رواية البخاري في كتاب الصوم .

وفي الحديث الآخر عن النبي ﷺ قال : « من فطّر صائمًا كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء » رواه الترمذي ، فالمسلم في هذا الشهر إذا أكل ثلث بطن كما أرشدنا النبي ، وجاد على إخوانه بما يستطيع خير له من أن يملأ بطنه ، ثم يصاب بالتخمة ثم يكون بعد ذلك فساد الصحة .

٣ – كان من منهج رسول الله صلى الله عليه وعادته في الصوم أنه يعجل الفطر ، وليس من التبرر أن يحرم الإنسان نفسه من طعام وشراب حلالين بعد غروب الشمس وقد أوصى بذلك النبي الأمة ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » وكذلك كان من هديه تعجيل الصلاة ، وقد دخل مسروق ورجل آخر على عائشة – رضي الله عنها – فقال لها مسروق « رجلّان من أصحاب محمد ﷺ كلاهما لا يألو[1] عن الخير : أحدهما يعجل المغرب

(١) لا يقصر فيه .

والإفطار والآخر يؤخر المغرب والإفطار؟ فقالت: من يعجل المغرب والإفطار؟ قال: عبد الله - يعني ابن مسعود - فقالت: هكذا كان رسول الله ﷺ يصنع».

وقد روىٰ لنا أنس رضي الله عنه ما يفسر التعجيل بالإفطار والصلاة فقال: «كان رسول الله ﷺ يفطر قبل أن يصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات فتميرات، فإن لم تكن تميرات حسى حسوات من ماء» رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن.

فعلى الصائم الذي يريد أن يسير على هدي النبوة، وينهج في صيامه منهجًا سليمًا أن يفطر على شيء من الرطب أو التمر فإن لم يجد فليأخذ بعض الماء، وليتجنب البارد ما استطاع وهذه الطريقة هي أقوم الطرق وأحسنها لاستفادة الصائم من صومه، والمحافظة على صحته، لأن تناول الطعام الخفيف أو الحساء، أو الماء الطبيعي بمثابة إيقاظ للمعدة وتنبيه لها كي تؤدي وظيفتها، كما أن فيه تخفيفًا لحدة الجوع والعطش ولاسيما في الأوقات الحارة والبلاد القاحلة فإذا ما صلى بعد ذلك صلى وهو هادئ النفس غير مشتغل بشيء آخر، فإذا ما انتهى من صلاته فله أن يأكل ما يشاء من غير إفراط ويشرب ما يشاء من غير إسراف، وبذلك يشعر

بفوائد الصوم الصحية والبدنية، وهذا الهدي النبوي يتفق هو وأحدث ما يوصي به نطس الأطباء اليوم، وَصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ ومعظم البلاء إنما يحصل للصائمين من الإسراف في المآكل والمشارب فيصاب بالتخمة ثم يكون من بعد ذلك العلل والأمراض فمن خالف هذا الهدي النبوي فلا يلومن إلا نفسه والصوم برئ مما يصاب به وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ وقد نبه النبي ﷺ إلى أن مراعاة القصد والاعتدال في الصوم وفي غير الصوم من الأسباب الوقائية لحفظ الصحة ودوام العافية فقال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، فإن كان ولا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه» رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

٤ - ومن سنن الصوم ومستحباته السحور وقد روى الشيخان في صحيحيهما عن النبي ﷺ قال: «تسحروا فإن السَّحور بركة» والسحور بفتح السين هو ما يؤكل قبيل الفجر، وبضم السين مصدر بمعنى التسحر، وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو داود والنسائي عن العرباض بن سارية قال: «دعاني رسول الله

ﷺ إلى السحور في رمضان وقال : هلم إلى الغذاء المبارك » وكيف لا يكون بركة وهو الذي يقوي الصائم ويعينه على صيام نهاره ، والقيام بأداء أعماله ، ويخفف من ألم الجوع والعطش ، فلا تضيق نفسه ، ولا تسوء أخلاقه ، كما أنه يدعو الصائم إلى الذكر والدعاء ، وصلاة الفجر في وقتها ، كما أن فيه إقامة السنة ومخالفة أهل الكتاب الذين لا يتسحرون ، وكل ذلك فيه تحصيل الأجر وزيادة الثواب ، وفي الحديث الآخر ما يشير إلى بعض حكمه فقد قال رسول الله ﷺ : « استعينوا بالقيلولة على قيام الليل ، وبالسحور على صيام النهار » .

ومن هدي النبي ﷺ في السحور التخفيف ، فعلى الصائم أن يتبع هدي النبوة في هذا ، وقد أشار النبي إلى هذا بقوله ﷺ « نعم سحور المؤمن التمر » رواه أبو داود وغيره ، وروىٰ الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « السحور كله بركة فلا تدعوه ولو أن يجرع أحدكم جرعة ماء ..» ولو أن الناس أتبعوا هذا الهدي لشعروا بلذة الصوم وثمرته المرجوة ، ولزكت أرواحهم بتخلصها من أثقال المادة في هذا الشهر ، ولصلحت أبدانهم بإراحة المعدة واستجمامها من هذا العناء الواصب طول العام .

ومن سنن السحور تأخيره إلى قبيل طلوع الفجر لكون ذلك أدعى إلى تحصيل الفوائد التي ذكرناها آنفًا وقد روىٰ الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال : « كنت أتسحر في أهلي ثم تكون سرعتي أن أدرك السجود مع رسول الله ﷺ » .

وروي أيضًا عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال : « تسحرنا مع النبي ﷺ ثم قام إلى الصلاة ، قلت : كم كان بين الأذان والسحور قال : قدر خمسين آية » أي متوسطة ، لا طويلة ولا قصيرة ، لا سريعة ولا بطيئة .

٥ - ورمضان شهر العبادة والذكر ، والصلاة وقراءة القرآن ، وهو موسم من مواسم الخير هكذا كان ينظر إليه النبي ﷺ والمسلمون الأُولون من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم القيامة ولم يكن - كما هو عندنا اليوم - شهر مآكل ومشارب وسهر ، ولهو ، وعبث .

وقد جعل الله لنا فيه ليلة هي خير من ألف شهر وهي ليلة القدر ، وشرع لنا النبي ﷺ قيامه وهي صلاة التراويح ، فيها الترويح عن النفوس المؤمنة وفيها راحة القلوب المطمئنة المتعطشة إلى رضوان الله .

وكان من هدي النبي في العشر الأواخر من رمضان الاجتهاد في العبادة، وإشراك أهله معه في ذلك والانقطاع إلى الله بالاعتكاف في هذه العشر. روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا دخل العشر يعني - الأواخر - شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله» وروى أيضًا بسنده عن ابن عمر - رضي الله عنهما - «كان رسول الله صلى اله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان» ولو لم يكن في هذه العشر الأواخر إلا أنها مظنة ليلة القدر لكفى ففي الحديث الصحيح» تحروها في العشر الأواخر من رمضان وأرجى الليالي أوتارها».

ترى - أيها المسلم - لو أن كل مسلم نهج هذا المنهج السوي في شهر رمضان فهل كنت تسمع هذا السباب والفحش والبذاءة في نهار رمضان؟! وهل كنت تجد فقيرًا أو مسكينًا يتضور جوعًا ؟! أو يشتكي عريًا؟! وهل كنت تجد هذا التكالب على المآكل والمشارب وهذا الإسراف في شهر الصوم وكبح شهوات النفس؟! وهل كنت تجد الكثيرين يقضون نهارهم نائمين، وليلهم لاهين؟! وهل كنت تجد البعض يذهب إلى الأطباء يشتكي البطنة، وشر التخمة؟! وهل.. وهل.. اللهم لا.

(٥)
مغزى شريعة الصيام

١- تشريع الصيام في الإسلام

٢- الصوم والطب الحديث

٣- الصوم والتربية النفسية

(١)

تشريع الصيام في الإسلام[1]

في شعبان من السنة الثانية للهجرة .. فرض الله شريعة من أعظم شرائع الإسلام وركنا من أعظم أركانه ألا وهو صيام رمضان ، وكان النبي ﷺ لما قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، وهو اليوم العاشر من المحرم - فسألهم عن سبب ذلك فقالوا : هذا يوم نجى الله فيه موسى وقومه فصامه موسى شكرًا لله ، فقال النبي ﷺ : « نحن أولى بموسى منكم فصامه ، وأمر المسلمين بصيامه ، روى ذلك البخاري ، ومسلم في صحيحيهما فلما فرض الله عز شأنه صوم رمضان أصبح صيام يوم عاشوراء غير واجب فمن شاء صامه ومن شاء أفطره ، روى ذلك الشيخان أيضًا عن عائشة رضي الله عنها ..

فرضية صيام رمضان :

وصيام رمضان ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة والإجماع ، أما الكتاب فقوله سبحانه وتعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ

(١) مجلة رابطة العالم الإسلامي ، العدد ٧، السنة الرابعة ، رمضان ١٣٨٦هـ .

عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣: ١٨٤] فالآية نص في الفرضية لأن لفظ كُتِبَ في استعمالات القرآن بمعنى فرض مثل قوله أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ الآية [البقرة: ١٧٨]، وقوله أيضًا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٠: ١٨١].

وقد كانت هذه الوصية واجبة محتمة حتى نُسِخَ ذلك بالميراث كما ذهب إليه جمهور العلماء وكذلك مصدر هذه الكلمة يأتي بمعنى الفرض المحتم قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] أي فرضًا محتما مؤقتا بأوقات معينة مخصوصة

أجملها القرآن الكريم وبينتها الأحاديث النبوية غاية البيان .

وأما السنة فقوله ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما : « بُني الإسلام على خمس شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج بيت الله الحرام » وقد استفاض وتواتر من سنته العملية ..

وأما الإجماع فقد أجمع عليه المسلمون ولم يشذ عن ذلك أحد وبذلك صار فرضا معلومًا من الدين بالضرورة ، فمن جحده وأنكره فقد كفر ، ومن تركه تهاونا به وكسلًا فهو فاسق ويُعَزَّر إن تجاهر بالفطر في رمضان ، لأنه أصبح شعيرة من شعائر الإسلام .

وكان صيام رمضان في مبدأ فرضيته على سبيل التخيير فمن شاء صام وأدى الفريضة ، ومن شاء أفطر ووجب عليه الفداء : عن كل يوم إطعام مسكين ، ثم لمَّا مرنوا عليه ، وأصبح أمرًا مألوفا أمرهم الله سبحانه بصيامه على سبيل الإلزام ، ونسخ التخيير ، وذلك بقوله سبحانه وتعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ

ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة : ١٨٥]

وهذا الرأي هو الذي تشهد له الأحاديث الصحيحة روى الشيخان في صحيحيهما : واللفظ لمسلم - عن سلمة بن الأكوع قال : « لما نزلت هذه الآية ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها وهي قوله تعالى : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ » وشهد إما بمعنى حضر وذلك بأن يكون مقيمًا غير مسافر ، أو بمعنى رأى - أي : رأى هلال الشهر - فليصمه على سبيل الحتم والفرضية وقد أكدت الآيتان الرخصة للمريض أو المسافر أن يفطر ويقضي في أيام أخر دفعا للحرج والمشقة وتيسيرًا من الله على المسلمين ولعل في تكرير هذه الرخصة ما يؤيد القائلين بأن التمييز بين الصوم والفداء منسوخ لأنه لما كان قد يتوهم أن النسخ يشملها فكررت إزالة لهذا التوهم فسبحانه من إله رحيم حكيم ..

ويرى فريق من العلماء وعلى رأسهم ابن عباس رضي الله عنهما ، أن لا نسخ ، وأن الآيتين محكمتان وأولوا قوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ بأن المراد به

الشيخ الكبير الفاني والمرأة الكبيرة الفانية اللذان لا يستطيعان الصوم فلهما أن يفطرا ويطعما بدل كل يوم مسكينًا ..

روى ذلك البخاري في صحيحه وعلى رأي ابن عباس وموافقيه تكون الآيات قد نزلت كلها مرة واحدة.

وأيًّا كان المراد من الآية ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٌ طَعَامُ مِسۡكِينٍۖ﴾ فليس لأحد أن يتحلل من هذه الفريضة المحكمة الباقية إلى يوم القيامة ويزعم المكلف القادر على الصوم مخير بين الصوم والفداء فإن هذا إلحاد في شرع الله، وتحريف لكلام الله بالباطل فإياكم أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أن تغتروا بكلام هؤلاء الذين يحرمون ويحللون من عند أنفسهم فأنهم كذابون أفاكون، فلا تحليل ولا تحريم إلا من الشارع الحكيم وفي أمثال هؤلاء الملحدين في دين الله أنزل الله سبحانه قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧] وفي مبدأ فرض الله الصوم على المسلمين كان الصائم إذا أفطر بعد الغروب يأكل ويشرب ويباشر امرأته إلى أن

ينام أو يصلي العشاء الآخرة فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والمباشرة ، فشق ذلك على المسلمين ، ووقع بعضهم في الحرج بسبب هذا ، فخفف الله عن الأمة ورحمها ، فأباح لهم هذه الثلاثة إلى طلوع الفجر[1]. روى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ بن جبل من حديث طويل في أحوال الصلاة والزكاة قال : « .. وكانوا يأكلون ، ويشربون ، ويأتون النساء ما لم يناموا ، فإذا ناموا امتنعوا ، ثم إن رجلا من الأنصار يقال له صرمة – يعني ابن قيس – كان يعمل صائما حتى أمسى ، فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ، ولم يشرب حتى أصبح ، فرآه رسول الله ﷺ قد جهد كثيرًا فقال : « ما لي أراك قد جهدت جهدًا كثيرًا » فاخبره ، وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله سبحانه ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوي جـ١ ص٤١٨ .

ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧] وقوله سبحانه: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ من موجز الكلام وأفصحه وأبلغه فقد شبه ما بين الرجل وزوجته من عدم الحوائل والموانع والحجب، وشدة المخالطة والملابسة، واشتمال كل منهما على الأخر بما بين اللباس ولابسه، هذا إلى ما في اللباس من معنى الستر والزينة وشدة حاجة لابسه إليه، والمراد أن كل واحد من الزوجين ستر لصاحبه وزينة له فهو يعفها وهي تعفه، وهو زينة لها، وهي زينة له، وهي تكمله وهو يكملها وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

والمراد بالخيط الأبيض ضياء الفجر..

فقوله سبحانه من الفجر بيان له، والمراد بالخيط الأسود ظلمة الليل يعنى حتى يستبين بياض النهار من ظلمة الليل، وقد اكتفى الحق تبارك وتعالى ببيان أحدهما عن بيان الأخر ومما يستطرف

ذكره هنا أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم فهم من الخيط الأبيض والأسود أن المراد حقيقة الخيطين حتى بين له النبي ﷺ المراد روى الشيخان في صحيحيهما والإمام أحمد في مسنده عن عدي بن حاتم قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض قال: فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت أنظر إليهما، فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت، فقال: «إن وسادك لعريض إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل» وفي بعض الروايات «إنك لعريض القفا» كناية عن الغفلة.

وقد استدل بجعل الفجر غاية للمباشرة والأكل والشرب على جواز صوم من أصبح جنبا فعليه أن يغتسل وليتم صومه ولا حرج عليه وذلك لأن إباحة الجماع إلى طلوع الفجر يقتضي كونه جنبا في جزء من النهار لا محالة، وهو مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما - أنهما قالتا «كان

رسول الله ﷺ يصبح جنبًا من جماع غير احتلام، ثم يغتسل ويصوم، وفي حديث أم سلمة «ثم لا يفطر ولا يقضي».

وبعد، فيا أيها المسلمون في كل قطر وبلد: هذا هو الصوم فريضة محكمه، لا ينفع في تركه والتهاون في أدائه الأعذار الواهية والتعليلات الباطلة من تقليل الإنتاج وضعف الاقتصاد أو شدة الحر أو قسوة الجو إلى غير ذلك مما نسمعه في هذه الأيام، وإنما هي أوهام ونزغات شيطانية يلقيها الشيطان على لسان بعضنا، وطالما صام آباؤنا وأجدادنا وسلفنا الصالح في الحر الشديد، والبرد القارص وما قلل ذلك من إنتاجهم، ولا أثر في اقتصادهم، إن من يفطر في رمضان بغير عذر شرعي فهو محارب لله ولرسوله، ومن حارب الله فهو المغلوب المهزوم، لأن لله جنودًا لا يعلمها إلا هو، من أضعفها الجوائح والآفات التي تأتي على الأخضر واليابس، وتدع الديار بلاقع. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

***

(٢)

الصوم والطب الحديث[١]

الإسلام هو الدين العام الخالد الذي ارتضاه الله – سبحانه – للناس عامة وجعله عماد السعادتين الدنيوية والأخروية، وصدق الله حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

ومن أكبر البراهين على أن هذا الدين من عند العليم الحكيم، وأنه ليس من صنع بشر أن جميع تعاليمه تتمشى مع الفطرة البشرية، وليس فيها ما يخالف العقل، ولا ما يسبب لمؤمن به ضررا في نفسه أو عقله، أو ماله، بل كله خير، وحق، وعدل، وصدق الله حيث يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقد جاء هذا الدين الإلهي بحقائق ما كانت تخطر على بال إنسان حينئذ مهما سما عقله واتسعت ثقافته، وقرأ الكتب،

---

(١) مجلة منبر الإسلام، العدد التاسع، السنة ٢٠، رمضان ١٣٨٢هـ – فبراير ١٩٦٣م.

ودارس أهل العلم ، ومما يثير العجب أن تأتي هذه الحقائق على لسان نبي أمي ، لم يقرأ ولم يكتب ولم يجلس إلى معلم ، وبذلك كانت معجزات - إلى معجزته الكبرى وهي القرآن - شاهدة له أنه ما ينطق عن الهوى أن هو إلا وحي يوحى . وصدق البوصيري حين قال :

« كفاك بالعلم في الأمي معجزة
في الجاهلية والتأديب في اليتم »

وقد شاء ربك أن تأتي الكشوف العلمية الحديثة مؤيدة لما يشتمل عليه هذا الدين من حقائق فكانت آية صدق على أن هذا الدين من عند علام الغيوب الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

ومن هذه التعاليم التي جاء بها الإسلام وأيدها العلم الحديث شريعة الصيام وسأتناوله من ناحيته الصحية الطبية ، ومما لا يختلف فيه اثنان أن رسولنا محمدًا - صلوات الله وسلامه عليه - لم يكن من أهل الطب ، ولم يعرف عنه أنه زاول هذه المهنة ومع هذا فقد أتى في بعض إرشاداته وتوجيهاته النبوية بما أدهش الأطباء وحاز إعجابهم .

وقد بيّن بعض نُطس الأطباء أن الصوم طب لبعض المرضى بالأمراض المستعصية، كاضطرابات الأمعاء المزمنة، وزيادة الضغط، والسمنة المفرطة، والبول السكري، والتهاب الكلى الحاد المزمن، وأمراض القلب المصحوبة بتورم، والتهاب المفاصل المزمنة، وكما هو طب لهؤلاء فهو وقاية للأصحاء يقيهم شر هذه الأمراض، ويحول بينهم وبين الإصابة بها..

واليك خلاصة ما ذكره أحد عباقرة أطبائنا العرب، وهو المغفور له الدكتور عبد العزيز إسماعيل، قال في كتابه: «الإسلام والطب الحديث» ص ٢١ وما بعدها:

«لقد ظهر أن الصيام يفيد في حالات كثيرة، وهو العلاج الوحيد في أحوال أخرى وهو أهم علاج إن لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من أمراض كثيرة.

فللعلاج يستعمل في:

١ - اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر في المواد الزلالية والنشوية، وهنا ينجح الصيام وخصوصًا عدم شرب الماء بين الأكلتين، وأن تكون بين الأكلة والأكلة مدة طويلة كما في صيام رمضان، وممكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة

التخمر ، وهذه الطريقة هي أنجع طريقة لتطهير الأمعاء .

٢ - زيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا أنجع علاج مع الاعتدال في الطعام في الإفطار والسحور .

٣ - زيادة الضغط الذاتي : ففي هذه الحالة يكون صوم رمضان نعمة وبركة .

٤ - البول السكري : ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهم علاج في هذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين خصوصًا إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعي .

٥ - التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

٦ - أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ - التهاب المفاصل المزمنة خصوصًا إذا كانت مصحوبة بسمن .. وقد شوهدت حالات تتمشى في شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث .

ورب سائل يقول : ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج إلى إرشاد طبيب في كل مرض على حدته ، والصيام الذي كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء ، وهذا صحيح ، ولكن

فائدة الصيام للأصحاء هي الوقاية من هذه الأمراض، وخصوصا الأمراض التي مر ذكرها تحت أرقام: ١، ٢، ٣، ٤، ٧ .

وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف، فقد انتشرت في أوروبا أكثر من الأول، وفي مصر يكاد يكون البول السكري، وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا، وقليلًا جدا في الفقراء .

ويغلب على الظن أن ذلك هو السر في أن الصيام في الإسلام أشد منه في الأديان السابقة، لأن الإسلام وهو آخر الشرائع السماوية، جاء في زمن نحتاج إلى وقاية من أمراض تزداد كلما زاد الترف » وإنا لنجد بعض الأطباء غير المسلمين يصفون لمرضاهم الصوم كعلاج في بعض الأمراض .

وإذا اتبعنا هدىٰ اللّٰه ورسوله في الصيام شعرنا بفائدة الصوم الصحية، ووقينا أنفسنا من بعض الحالات التي تحدث لبعض الصائمين نتيجة للإسراف في المطاعم والمشارب والإسراف في الملذات في شهر رمضان ..

وقد جمع الله - سبحانه - أساس الطب وصحة الأبدان في آية وجيزة فقال :

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ ، وكذلك رسوله - ﷺ - في قوله : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان ولا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

وقديمًا قال طبيب العرب الحارث بن كلدة : « المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء » .

وهذه الكلمة حكمة طبية عربية ، وليست حديثًا نبويًا كما يظن كثير من الكاتبين والباحثين ، وأساس الشعور بفوائد الصوم الصحية هو في اتباع الهدي النبوي في طعام الإفطار والسحور وقد كان من هديه - ﷺ - في رمضان أن يعجل بالفطر على أي شيء كان ولو ماء ، ثم يصلى المغرب ثم يتناول طعامًا قليلًا .. عن أنس - رضي الله عنه قال :

« كان رسول الله - ﷺ - يفطر قبل أن يصلي على رطبات ، فان لم تكن رطبات فتميرات ، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء » .

رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن ، وهذا المنهج في الإفطار هو أولى وأفضل ما يوصي به الأطباء البارعون

المحدثون ، كما كان له هدي في السحور ، فهو يوصي به لما فيه من التقوي على الصوم ، وعلى أعمال الصائم المعيشية التي يقوم بها في نهاره ، فيقول :

« تسحروا فإن في السحور بركة » .

رواه البخاري ومسلم ، ولكنه - ﷺ - مع هذا يوصي بالتقليل منه فقد روىٰ أبو داود وغيره عن أبي هريرة قال :

قال : رسول الله - ﷺ : « نعم سحور المؤمن التمر » . وروىٰ الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله - ﷺ :

« السحور كله بركة فلا تدعوه ولو أن يجرع أحدكم جرعة ماء » .

وهذا التوجيه النبوي الكريم هو ما يتفق وما يوصي به نطس الأطباء اليوم ، فمن لم يهتد بهذا الهدي النبوي ، وأسرف في طعامه وشرابه عند إفطاره وسحوره ، فأتخمت معدته وأصيب باختلال في جهازه الهضمي فلا يلومن إلا نفسه وليس ذلك من الصوم ، وإنما نتج من سوء تصرفه .

قال أحد الأطباء المشهورين : « من الناس من يتوهم أن في صيام رمضان وهو من أركان الإسلام مضرة تلحق بالصائم ، ولما

يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب ، وهذا خطأ ، لأن ما ذهبوا إليه ليس من الصيام ، ولكنه من ترك الاعتدال في طعام الإفطار والسحور ، ولأنهم لم يراعوا ما يتناسب مع خلو المعدة النهار كله وقت الإفطار ، ولأن السحور يجب أن يقتصر على بضع لقمات لأنه لا ضرر من الجوع في حد ذاته » .

أيها المسلم الصائم : أرأيت إلى تشريع ربك كله صواب وحكمة ورحمة ، وكيف جاء النبي العربي الأمي في باب علم الأبدان بما لم يكن يخطر لإنسان على بال ، فجاء الطب الحديث فأيده كل التأييد ، وأن نبيك لما قال - فيما رواه الإمام أحمد :

« صوموا تصحوا » كان يصدر عن إلهام ووحي من رب العالمين ، وصدق الله العلي العظيم حيث يقول : ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

* * *

(٣)

الصّوم والتربية النفسَّية[١]

من مقاصد الشريعة الإسلامية إصلاح المجتمع الإنساني، وإقامة هذا الإصلاح على أساس من الخلق الكريم والفضائل الثابتة التي لا يقوم مجتمع فاضل إلا عليها، كالتعاطف والتراحم والتعاون والتكافل والتحاب والتواد، والإصلاح لا يثمر ثمرته ولا يرجى بقاؤه إلا إذا كان منبعثًا من قلب الإنسان ونفسه وشعوره ووجدانه، والإسلام يهدف فيما يهدف إليه أن يقوم الإصلاح على أسس روحية ومعان نفسية، لا على أساس من سلطة الحاكم وسطوة القانون فحسب، وإلا فسرعان ما يمرق الإنسان من قيود الخير والحق والفضيلة إذا غفل الرقيب أو وجد ثغرة ينفذ منها إلى التحلل من سلطان القانون. وقد أشار الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه إلى هذا الأصل الذي يقوم عليه الإصلاح الصحيح بقوله - فيما رواه البخاري عنه - «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح البدن كله، وإذا فسدت فسد البدن

---

(١) مجلة الأزهر ج٩ مجلد ٢٤ .

كله ، ألا وهى القلب » ، ولذلك كثيرًا ما تجد القرآن والسنة يدعوان إلى الإخلاص ومراقبة الله وتحسين النيات وتذكية النفوس والخشية من الله ، لأنها دعائم الصلاح والاستقامة .

ومن محاسن الإسلام أنه حينما يدعو إلى تقويم السلوك الإنساني وجعله موائمًا للحق والخير والفضيلة لا يعمل على كبت الغرائز النفسية وتجاهل الفطرة البشرية وإنما يعمل على توجيه الغرائز توجيهًا سليمًا ، وتنمية النزعات النفسية الخيرة بحيث تسيطر على أعمال الإنسان وسلوكه الديني والدنيوي ، وذلك عن طريق التشريعات الحكيمة التي توصل إلى المقاصد الشريفة .

ومن شرائع الإسلام التي تربي النفوس على الأخلاق الحميدة ، وتنمي نزعاتها الخيرة ، شرعة الصوم . وأول صفة ينميها الصوم في نفس الصائم هي قوة الإرادة ، فالصائم الذي يفطم نفسه عن المآكل والمشارب والشهوات الجسدية ، والنفسية وهى على قيد الذراع منه مدة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ثم يستمر على ذلك شهرًا كاملًا لابد أن يخرج من صومه وهو ذو إرادة قوية عاقلة حازمة ، فما بالك إذا تكرر الصوم عامًا بعد عام ، بل ماذا يكون الحال لو أنه حرص على أداء الصوم المسنون في جميع أيام

العام حتى يصير الصوم له عادة ، والمسلم إذا تربت فيه قوة الإرادة أصبح مسيطرًا على رغبات نفسه فلا يكون عبدًا لهواه ولا أسيرًا لشهواته ، ومن ثم يملك زمام نفسه ويوجهها التوجيه الواجب ، وحينئذ يسهل عليه الائتمار بما أمر الله وإن كان شاقًا على النفس ، والانتهاء عما نهى عنه وإن كان محبوبًا لها . وإذا علمنا أن أكثر الفساد والاضطراب في حياة الناس إنما يأتي من ضعف الإنسان أمام شهواته وأهوائه ، أدركنا ما للصوم من أثر بعيد في حركة الإصلاح والتطهير وتكوين المجتمع المثالي الكريم ، وما أشد احتياج المسلم الذي تتناوشه زخارف الحياة وزينتها إلى إرادة قوية حازمة تعصمه من الفتن وتقيه شر الزلل ، وعلى قدر تفاوت البشر في قوة إراداتهم وصلابتهم في إحقاق الحق وإزهاق الباطل تكون منازلهم في الفضل والكرامة ، وصلاحهم وإصلاحهم .

ولا عجب إذا كان الصوم سمة من سمات الأنبياء والصديقين والصالحين ، وإن اتخذوه وسيلة من وسائل مجاهدة النفس وتربيتها تربية صحيحة ، وأن جعله الله فريضة في كل شرع ودين ، وصدق الله حيث يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾

وإن الأمم في حياتها لتتعرض لهزات اقتصادية ربما يترتب عليها نقص في مواد معايشها وأرزاقها ، وغلاء فاحش في بعض الأسعار ، فلو أن كل إنسان - بما كسب من قوة الإرادة - كف نفسه عن شهواتها وفطمها عن بعض مستلذاتها وتقشف بعض التقشف ، لمرت كل الأزمات الاقتصادية بسلام ، ولاضطر الجشعون والمستغلون لحاجات الناس إلى الحد من غلوائهم وعرض السلع بأقل من ثمنها المعتاد ، ورحم الله القائل :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع ، وإن تفطمه ينفطم

ومن الصفات النفسية التي يربيها الصوم في نفس الصائم صفة المراقبة ، مراقبة الله عز وجل في السر والعلن والغيبة والشهود . والمسلم إذا راقب اللّٰه حق المراقبة فقد بلغ غاية الإحسان . وفي حديث جبريل المشهور الذي رواه الشيخان أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : ما الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ولا تكاد تجد عبادة تتجلى فيها مراقبة الله مثل الصوم ، فالصائم الذي لا يراقب الله سبحانه ربما يأكل

ويشرب في الخفاء ثم يظهر أمام الناس بمظهر الصائم المتنسك .

فالصوم في الحقيقة سر بين العبد وبين ربه ، ولا يطلع على حقيقته إلا الله . ولكونه سرًا بين العبد وبين ربه أضافه الله إلى نفسه وشرفه بهذه الإضافة ، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ، والصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب . فإنه سابه أحد أو قاتله فليقل إني أمرؤ صائم .. » الحديث .

ولا يزال الصوم يقوي من صفة المراقبة حتى تصير ملكة من الملكات النفسية ، وإذا صارت ملكة راسخة تحكمت في سلوك الإنسان ووجهته إلى المسارعة في الخيرات والإحجام عن المنكرات ، إذ كلما أمرته نفسه الأمارة بالسوء بمنكر تذكر عظمة الله وجلاله وأنه مطلع عليه ومراقب له فيكون له أترك ولعمل الخير أسرع ، وصدق الله حيث يقول : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ . وصلاح الأفراد والجماعات متوقف إلى حد كبير على هذا الوازع النفسي الذي يجعل من صاحبه رجلًا حاضر القلب متيقظ الشعور حي الضمير .

ولو أن كل إنسان وكل إليه أمر من الأمور راقب الله في عمله وفيمن تحت يده وتيقن أن هنا محاسبًا لا يغفل ، لقطع دابر الفساد والشرور والآثام ولساد الحق وعم الخير البلاد والعباد .

وصفة أخرى يربيها الصوم في النفس ، تلك هي صفة الصبر والاحتمال ، الصبر على الطاعات واحتمال ما يحيط بها من مكاره ومشاق ، والصبر عن المعاصي والشهوات ، أليس ما يتطلبه الصوم من الصائم أن يكون على سمت خاص في العبادة وأن يكف نفسه عن شهوات بطنه وفرجه ، ولسانه عن الهُجر والفُحش من القول ، وجوارحه عن فعل ما يؤثم ؟ وهل الصبر إلا حبس النفس على ما تكره وصرفها عما تحب وتشتهي ، فالصبر ثمرة من ثمرات الصوم وغاية من غاياته ، وفي حديث الباهلي الذي رواه أبو داود أن النبي ﷺ قال له : « صم شهر الصبر ويومًا من كل شهر » فقد سمى رسول الله رمضان شهر الصبر ، ولا يزال الصائم يروض نفسه على الصبر حتى يصير عادة ، وحينئذ يمكن للمسلم أن يشق عباب الحياة المتلاطم بأمواج الفتن والبلاء والشدائد والمكاره ، فالصوم اختبار عملي لتعرف أحوال النفوس البشرية ومدى صلاحيتها لتكاليف الحياة وحمل أعبائها ، وأن الصوم في الأيام

الشديدة الحرارة ، ولا سيما مع مزاولة العمل الشاق ، ليستحق أن يكون درسًا عمليًا في الاحتمال دونه كل درس ، وما من شخص في الدنيا إلا وهو في حاجة إلى الصبر وترويض نفسه عليه ، فالفلاح في مزرعته والصانع في مصنعه والعامل في عمله والطالب في استذكار دروسه والأم في القيام بأعباء بيتها - كلهم في حاجة إلى هذا الدرس العملي .

هذا إلى ما في الصوم من غرس الرحمة في القلوب ، فترق القلوب القاسية وتتهذب النفوس الشحيحة وتبسط الأيادي المغلولة وتدر الخير على الفقراء المحتاجين الذين تمر بهم الأيام ولا يجدون ما يقيم صلبهم ويرطب قلوبهم ولا يشعرون بأن لهم إخوانا في الإنسانية يمدون إليهم يد المعونة والإنفاق ، فالصائم إذا أحس من نفسه ألم الجوع وحرارة العطش ومرارة الحرمان من لذائذ الحياة وطيباتها دفعه ذلك دفعا إلى العطف والبذل والعطاء .

وشتان بين من يؤمر بالإعطاء وقد ذاق ألم الجوع ومرارة الحاجة وبين من يؤمر ولم يجع يومًا ولم يذق ألم الحرمان ، وإن المجتمع الذي لا يعطف فيه الأغنياء على الفقراء ولا يرحم فيه الأقوياء الضعفاء ولا يسود فيه التكافل والتعاون على البر والخير

لهو مجتمع مجرد من خصائص الإسلام ويخشى عليه من الزوال والدمار .

وبحسبنا ما ذكرت في بيان أثر الصوم في تربية النفوس وإصلاح المجتمع إصلاحًا قائمًا على دعائم روحية ونفسية لتكون أبقى أثرا وأدوم نفعًا ، ولعلك أدركت معي - أيها القارئ الفطن - حكمة الله الدقيقة السامية في تشريع الصوم ، وأن تشريع ربك كله خير ورحمة وصدق وعدل ، وصدق الله : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ .

* * *

(٦)

من ذكريات رمضان

١- شهر الذكريات الخالدة

٢- فتح الفتوح في الإسلام

(١)

شهر الذكريات الخالدة

إن من الأيام والشهور أيامًا وشهورًا لا تقاس بمقياس الزمن ، وإنما تقدر بمعيار الخلود ، لما لها من آثار صالحة باقية في حياة الفرد أو الأمة أو الدنيا بأسرها ، وشهر رمضان حافل بالذكريات الخالدات ، لا أقول في تاريخ الأمة العربية والدعوة الإسلامية فحسب ، بل في تاريخ البشرية جمعاء ، ولو أن هذا الشهر استأثر بذكرى واحدة من هذه الذكريات لكان حقيقًا بالتكريم والتمجيد ، فما بالك وفيه أكثر من ذكرى ، وفي كل ذكرى عِبَر وعظات .

وأولى هذه الذكريات وأحفلها بالمعاني السامية ، وأحقها بالخلود « إنزال القرآن الكريم » ، ففي يوم خالد من أيام رمضان عام نُبِئ النبي ﷺ ، وفي غار حراء ، حيث كان النبي يتحنث فيه لما حبب إليه الخلاء ، نزل أمين الوحي جبريل عليه السلام ، على خاتم الأنبياء والمرسلين بصدر سورة أقرأ : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ

ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ . وبذا بدأ التاريخ يتجه وجهة لم يكن له بها عهد من قبل ، وفتح الله في كتاب الكون صحائف مضيئة مشرقة ، وتتابعت آيات التنزيل وسوره كما تتتابع شآبيب الغيث على الأرض القاحلة المجدبة ، فأصاب منها أرضا نقية خصبة فاهتزت وربت ، وجادت بزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار .

وكان النبي صلوات الله وسلامه عليه تنزل عليه الآية والآيتان والخمس والعشر وربما السورة من المفصل على حسب الحوادث والوقائع وكفاء حاجات الخلق وأحوال المجتمع الإسلامي ، ولم تمض اثنتان وعشرون سنة ونصف تقريبًا[1] من نزول « أقرأ » حتى أتم الله إنزال القرآن وختم الوحي ، وكان آخر

(١) نزلت « اقرأ » في السابع عشر من رمضان على ما قيل ، ونزلت : ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ﴾ الآية ، قبل وفاة النبي ﷺ بتسع ليالٍ ، وقيل : بواحد وعشرين يومًا .

آية نزلت على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وفيما بين البدء والختام جاء بهداية الخالق لإصلاح الخلق، وتشريع السماء لأهل الأرض، هذا التشريع العام الخالد الذي أودع الله فيه كل حكمة، وناط بالتمسك به كل سعادة، فاهتدت به القلوب بعد ضلال، وأبصرت به العيون بعد عمى، واستنارت به العقول بعد جهل، وصدق الله: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة ١٥، ١٦].

ونحن حين نذكر إنزال القرآن، فإنما نذكر الثورة على العقائد الزائغة، والوثنية الزائفة والخرافات والأوهام الباطلة، والتقليد الأعمى الذي لا تبصر فيه ولا تثبت، وبعد صراع وجهاد، نرى التوحيد يسود وينتشر، والعقول تعقل وتتحرر،

والحق يثبت ويتقرر ، والأصنام تهوى وتطوح ، وترتفع كلمة الحق مدوية على ألسنة الخلق « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله » .

ونذكر الثورة على الأخلاق الفاسدة والأهواء ، والمظالم وسفك الدماء ، وانتهاك الأعراض واغتصاب الأموال ، فإذا الفضيلة تمحو الرذيلة ، والعدل يحل محل الظلم ، والأمان يسود الأرض ، ويسير السائر من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه .

ونذكر الثورة على أوضاع المجتمع الجائرة ، والعنجهية الآثمة ، واستذلال الملوك للشعوب ، والرؤساء للمرءوسين ، والأحرار للمماليك ، والأقوياء للضعفاء ، وتسير الثورة في طريقها مستبصرة متعقلة ، لاتني ولا تفتر ، فإذا المجتمع الإسلامي تسوده المساواة ، فالناس جميعًا أمام الله والشرع سواء ، فلا تفاضل بالأجناس والألوان ، ولا بالأموال والأحساب وإنما التفاضل بالتقوى ، وهي كلمة فيها جماع كل حق وخير

وفضيلة ، ويرفع الإسلام بالتقوى أناسًا كانوا مضيعين ، فأصبحوا سادة وقادة ، وصدق الله : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ، وصدق رسوله« من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

إن هذا الكتاب الخالد صَيّر من الموات حياة ، ومن قساة الأكباد رحماء ، ومن رعاة الإبل والشاء حكماء علماء ، وكون أمة مثالية في عقيدتها ، وفي خلقها ، وفي معاملاتها . وكون دولة صارت مضرب الأمثال في الحق ، والعدل ، والتراحم ، وأظلت العالم بلواء الأمن والسلام أحقابًا من الزمان ، فهل لنا أن نعض بالنواجذ عليه ، وأن لا نحتكم في شأن من شؤوننا إلا إليه ؟ لنعيد دولة الإسلام الأولى ، ونصير بحق كما قال الله : ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ! ! !

السبيل إلى ذلك أن نقرأ القرآن كما كانوا يقرأونه : قراءة إمعان وتدبر ، تستتبع العلم والعمل ، فبذلك فتحوا الفتوح ، وسادوا الدنيا ، وجعلوا سلطان الله مرهوبًا في الأرض .

لقد كان من شأن سلفنا الصالح أنهم كانوا إذا لاقو الأعداء

يسمع لهم دوي كدوي النحل بقراءة آيات الذكر ، فيفعل في النفوس فعل السحر ، ويصير منهم ليوثا كواسر تتضاءل أمامهم شم الجبال الراسيات ، فما بالك بالقلوب الخاويات ؟ ولأمر ما كان رسول الله ﷺ إذا بعث بعثًا استقرأهم ، فمن كان أكثرهم قراءة كان أحق بالإمارة والقيادة . وفي يوم حنين أمر العباس فنادى في الناس« يا أصحاب الشجرة » ، « يا أصحاب سورة البقرة » ، فجعلوا يقبلون من كل وجه . وفي يوم اليمامة جعل المهاجرون والأنصار يتنادون : يا أصحاب سورة البقرة ، حتى فتح الله عليهم ، وإن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب .

وفي رمضان من السنة الثانية للهجرة في اليوم السابع عشر منه ، كانت غزوة بدر الكبرى أولى وقائع الإسلام الفاصلة ، ولبدر في تاريخ الإسلام من بعيد الآثار مالها ، فلا عجب إذا كان الرسول ﷺ مشفقًا غاية الإشفاق على الإسلام من هذه الموقعة حتى لقد بلغ من إشفاقه أن أكثر من رفع يديه إلى السماء ، وهو يجأر إلى الله بالدعاء :

« اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني . اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد في الأرض » ولا يكف الرسول عن إلهاب حماسة المسلمين ووعدهم الجنة على الثبات ، وكان مما قال : « والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فَيُقتل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » فتملئ النفوس حماسة ، وتزداد إيمانا إلى إيمانها ، ويمد الله أنصاره بمدد من السماء ، وتنجلي المعركة عن انتصار حزب الله على حزب الشيطان ، وتصير كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، وصارت بدر مثلا في الأولين ، وعبرة في الآخرين ، إن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده المتقين ، وصدق العلي العظيم : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ .

إن الإنسان ليعجب كيف انتصرت الفئة القليلة في عددها

وعدتها على الفئة الكثيرة المغترة بخيلها وسلاحها وعتادها ، ولا يزال يقلب الأمر على جميع وجوهه حتى يخلص إلى سر الأسرار وهو الإيمان ، الإيمان بالله إيمانا لا تشوبه أية شائبة ، والإيمان بأن هناك حياة أخرى خيرًا من هذه الحياة الدنيا ، يوفىٰ فيها المحسنون والمجاهدون أجرهم بغير حساب ، والإيمان بالدعوة الإسلامية وصلاحيتها لإصلاح الناس ، والإيمان بأنهم خير الأمم ، وأنهم أحق بهذه الدعوة وأهلها ، هذا الإيمان المتشعب المتغلغل في أعماق القلوب هو سبب الأسباب في هذه الموقعة الفاصلة وغيرها من مواقع الإسلام الحاسمة .

لقد كان من آثار هذا الإيمان القوي ، هذه المواقف المشرفة ، والكلمات العذاب المؤمنة . التي صدرت عن الصحابة الأماثل قبيل الغزوة ، فقد روى الثقات أن النبي ﷺ لما علم بخروج قريش لتمنع عيرها وأخبر صحابته أن الله وعدهم إحدى الطائفتين : إما العير ، وإما النفير[1] وفرت العير

(١) العير : الإبل تحمل الميرة . والنفير : القوم الذين نفروا من مكة لمنع العير وهم الذين حاربوا المسلمين .

ولم يبق إلا النفير ، أراد أن يتعرف رأي أصحابه في الخروج للقتال فقال : أشيروا عليَّ أيها الناس . فقام السيد المقداد بن الأسود رضي الله عنه فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله ، فوالله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، والله لو سرت بنا إلى بَرَكِ الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه ، فدعا له النبي بخير . ثم قال عليه الصلاة والسلام : أشيروا عليَّ - وكان يريد الأنصار ، لأنهم بايعوه بيعة العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ما دام بين أظهرهم ولم يعاهدوه على الخروج ، فقام السيد الأوسي سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال : لكأنك تريدنا يا رسول الله . فقال : أجل . فقال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا ، فامض لما أمرك الله فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معك ، وما

(١) موضع على خمس ليالٍ من مكة إلى جهة اليمن .

نكره أن تكون تلقى بنا العدو غدا ، إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله » فأشرق وجهه ﷺ ، وبشرهم بالنصر ، وهكذا فليكن الإيمان .

شهر الذكريات الخالدة

ويسمو الإيمان بالمسلمين في بدر ، ويسمو الحب الممتزج بالإيمان ، فيشير السيد سعد بن معاذ على النبي ﷺ أن يبنوا له عريشًا وراء الجيش وتكون عنده ركائبه ، فإن نصرهم الله فذلك ما أحبوا ، وإن كانت الأخرى ركب ركائبه ولحق بمن بقي من المسلمين بالمدينة ، وهم قوم ليسوا بأقل ممن خرجوا إيمانا ولا طواعية لرسول الله ، ولولا ظنهم أن رسول اللّه خرج للعير لما تخلفوا عن الجهاد ، وقد أثنى النبي ﷺ على سعد ونزل عند هذا الرأي وضرب في باب الاستماع إلى المشورة الصائبة مثلًا يحتذى إلى يوم الدين ، وما أشار به سعد رضي الله عنه هو غاية ما وصل إليه الفن الحربي الحديث ، فانظر بعين

البصيرة كيف بلغ أبناء الصحراء في الفن الحربي شأوًا بعيدًا يشهد لهم بأصالة الرأي ، وذكاء القلب ، وسلامة الفطرة ، ولا عجب فالمؤمن ينظر بنور اللّه .

وإن المسلم منا ليغض الطرف حياء من نفسه حين يستعيد هذه الذكريات المجيدة التي مكنت للمسلمين الأولين في الأرض ، وبدلتهم من بعد خوفهم أمنا . ومن بعد ضعفهم قوةً وعزةً ، ولو أن في الخمسمائة مليون مسلم الذين يسكنون المعمورة اليوم ، مليونًا واحدًا على غِرار أهل بدر ، لصنعوا تاريخ العالم كما يريدون ، ولظهر الإسلام على الدين كله ، ولو كره الكافرون . فهل يثوب المسلمون إلى الرشد ؟ وهل يتخذون من أهل بدر وقائدهم قدوة حسنة ؟ وهل تتحقق الآمال ؟

وفي رمضان من السنة الثامنة ، وفي اليوم العشرين منه ، دخل الرسول ﷺ وأصحابه مكة منتصرين مظفرين ، وكان من فرط شكر النبي ﷺ لربه وشدة تواضعه أن طأطأ رأسه حتى لتكاد تمس جبهته الرحل ، وضرب الرسول وأصحابه مثلًا عليا في

العفو والتسامح ، لا تكاد تعرف إلا في تاريخ الإسلام . وبفتح مكة دخل الناس أفواجا في دين الله ، حتى أضحت الجزيرة على قلب رجل واحد ، وحقق الله لحبيبه محمد وعده ، وأتم عليه نعمته .

ولم يكد يمضي قرن من الزمان ، حتى بسط الإسلام لواءه على أنحاء العالم المعروف حينئذ ، ونَعِمَ بدين العدل والرحمة والمساواة ، وأضحى الناس في أمن وسلام . ولا يتسع المقال اليوم لإشباع القول في ثالثة الذكريات ، فإلى فرصة أخرى إن شاء الله .

* * *

(٢)

من ذكريات رمضان

« فتح الفتوح في الإسلام »[1]

في مثل هذا الشهر من العام الماضي كتبت مقالًا بعنوان « شهر الذكريات الخالدة » عرضت فيه لذكريين حبيبتين إلى القلوب المؤمنة : ذكرى نزول القرآن ، وذكرى غزوة بدر . وبقيت الذكرى الثالثة ، ذكرى فتح مكة بلد الله الحرام التي بها تم النصر ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وقد وعدت القراء الأفاضل بالكتابة في ثالثة الذكريات في مناسبتها ، وهأنذا أفي بما وعدت ، ومن الله التوفيق والفتح .

في السنة السادسة من الهجرة أراد النبي ﷺ وصحابته أن يعتمروا ، فصدهم المشركون عن البيت ، وكانت« بيعة الرضوان » التي بايع فيها المسلمون النبي ﷺ على الموت ،

(١) مجلة الأزهر ، الجزءان ١٥، ١٦ - المجلد السادس والعشرون ، رمضان ١٣٧٤هـ - إبريل ١٩٥٥م .

ثم كان ما كان من « صلح الحديبية » الذي اتفق فيه الطرفان على المهادنة وعدم الاعتداء ، وكان من شروط الصلح أن يرجع النبي ﷺ وأصحابه من عامه هذا ثم يأتوا في العام القابل فيدخلوا مكة معتمرين ليس معهم من السلاح إلا السيوف في القُرب ، وأن من أراد أن يدخل في عهد النبي فليدخل ، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش فليفعل . فدخلت خزاعة في عهد رسول الله ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش .

وقد وفى النبي والمسلمون بما عاهدوا عليه قريشًا حق الوفاء ، لكن لم تلبث بنو بكر – حلفاء قريش – أن أغاروا على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ وأخذوهم بغتة وهم على ماء لهم ، وأعانهم على غدرهم رجال من قريش . فما كان من خزاعة إلا أن أرسلوا رسولًا إلى نبي الله يخبره خبر ما جرى ، ويستنصره على هؤلاء الذين غدروا بهم ، فلم يجد رسول الله ﷺ بُدا من أن يجيبهم إلى ما طلبوا . فها هي قريش قد نقضت عهدها ، وظاهرت حلفاءها على حلفائه ، وها هم حلفاؤه جاءوا

يستنصرون به . وتبين رسول الله أن مهادنة قريش كانت على دخن ؛ إذًا فلتفتح مكة أم القرى التي هي من الجزيرة العربية بمنزلة القطب من الرحى ، وفيها الكعبة المشرفة التي تهفو إليها قلوب العرب قاطبة ، ويتوجه إليها المسلمون في صلواتهم ودعائهم .

وأحست قريش بسوء صنيعها وخافت مغبته ، فأرسلت كبيرها أبا سفيان بن حرب إلى المدينة كي يستوثق من العهد ويمد في الأجل ، فدخل على أبنته أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ يلتمس عندها العون على ما جاء من أجله ، ولكنه وجد منها أمرًا عجبًا خيب ظنه ، ذلك أنه ذهب ليجلس على فراش رسول الله ، فطوته عنه . فقال : يا بنية ، ما أدرى ، أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟ . فقالت : هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت مشرك نجس . فلم أحب أن تجلس عليه . فخرج وهو يقول : والله يا بنية لقد أصابك بعدي شر . ثم ذهب إلى رسول الله فكلمه ، فما رد عليه شيئًا ، وحاول أن يستشفع

بأبي بكر وعمر وعلى رضي الله عنهم عند رسول اللّٰه فما وجد عند أحد منهم ما يعينه على ما يريد ، بل أغلظ له الفاروق عمر في القول وأنذره بالشر . وما كان لي أن أمر بقصة أبي سفيان مع ابنته من غير أن أستخلص منها العبرة . وإن الإنسان ليلتمس السبب فيجده في الإيمان القوي الذي يحب لله ويبغض لله ، ويقول الحق ولو كان مرا ؛ وفي صنع السيدة أم حبيبة وأمثالها – وما أكثرهم – معنى قول الله تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ الآية [المجادلة : ٢٢] .

واستنفر رسول الله ﷺ الأعراب الذين حول المدينة وقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة . فاجتمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع حشد كثير . وكان من سياسة رسول الله ﷺ الموفقة إخفاء خبر الغزو

عن أهل مكة حتى لا يستعدوا فتكون الملحمة شديدة ، وما للمسلمين حاجة إلى إراقة الدماء .

وكانت أمنية الأماني عند رسول الله أن تفتح مكة من غير أن يراق دم ، فتبقى للبلد قداستها وحرمتها . وليس أدل على ذلك من دعائه – عليه الصلاة والسلام – ربه ومولاه بقوله : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها » .

سار الجيش اللجب الذي بلغ تعداده عشرة آلاف مجاهد في رمضان من السنة الثامنة ميممًا وجهه شطر مكة ، يحدوه إعزاز دين الله ونصرة حلفاء رسول الله ، وشهدت الصحراء هذا الجيش المؤمن المُوَحِد الذي لم تر له مثيلًا من قبل . وامتلأت جوانبها باسم الله الأكبر .

وفي الطريق إلى مكة التقى الرسول ببعض أهل بيته منهم عمه العباس رضي الله عنه . فأسلموا وحسن إسلامهم ، وما زال الجيش يغذ السير : منهم الصائم ومنهم المفطر حتى بلغ مَرَّ الظهران ، وهناك أوقدت عشرة آلاف ثائر ، فارتاعت رسل

قريش من هول ما رأوا ، وكان من الرسل أبو سفيان بن حرب ، وكان العباس عم رسول الله قد ذهب يتجسس الأخبار ، فعرف صوت أبي سفيان وهو يتحدث مع من كانوا معه ، فحمله وراءه حتى أتى به إلى رسول الله وعمر وراءهما يستأذن رسول الله في قتله ، ولكن رسول الله لم يأذن له وقال : « اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتني به » وفي الصباح غدا به إلى النبي ﷺ فعرض عليه الإسلام .

وبعد مجادلة شهد شهادة الحق وأسلم . وأراد رسول الله ﷺ أن يريه عزة المسلمين وقوتهم ليخبر من وراءه من قومه ، عسى أن يكون في هذا أن ترفع قريش راية الاستسلام ، ويفتح البلد الأمين من غير أن تراق الدماء ، فقال للعباس : أحبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى جنود الله ، فجعلت الكتائب تمر به كتيبة كتيبة ، وكلما مرت كتيبة سأل عنها فيجيبه العباس ، حتى مرت الكتيبة الخضراء التي فيها رسول الله يحف به سادات المهاجرين والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق

من الحديد ، فلم يلبث الرجل أن قال - وقد هاله ما رأى : « يا عباس ، ما لأحد بهؤلاء قبل ، والله - يا أبا الفضل - لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » فقال له العباس : إنها النبوة . قال : فنعم إذن . وكان سعد بن عبادة الأنصاري لما مر بأبي سفيان قال له : يا أبا سفيان« اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة » فلما أخبر رسول الله بمقالة سعد قال ﷺ : « كذب سعد ، ولكن هذا يوم تعظم فيه الكعبة » وأمر بالراية فأخذت من سعد وأعطيت لابنه قيس .

وكان العباس على علم بنفسية أبي سفيان ، فقال للنبي : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئًا ، فقال رسول الله الخبير بالنفوس : نعم « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » .

فانطلق أبو سفيان إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ،

ومن أغلق بابه فهو آمن . وقد كان لهذا أثره في نفوس القرشيين ، وعصمت بسببه دماء كثيرة في هذا اليوم المشهود .

ولم يفت النبي ﷺ - وقد أصبح على أبواب مكة التي حرمها الله يوم خلق السماوات والأرض - أن يوصيهم بأن لا يقاتلوا أو يسفكوا دما إلا إذا أكرهوا على ذلك إكراهًا واضطروا إليه اضطرارا . ودخل خالد بن الوليد ببعض الجيش من أسفل مكة ، فلم يجد إلا مقاومة من قلة ضئيلة استجابت لنزوات الشباب وحمية الجاهلية ، وكانت نتيجة المناوشات أن قتل من جيش خالد اثنان ومن المشركين بضعة عشر رجلًا .

ودخل النبي ﷺ ببعض الجيش من أعلى مكة من غير مقاومة ولا إراقة دم ، ونصبت له رايته على الحجون ، وضربت له هناك قبة ، وبذلك صدق الله رسوله وعده ودخل مكة منتصرًا . وكان من فرط شكره لله سبحانه وتواضعه أن دخل مطأطئًا رأسه حتى لتكاد جبهته تمس الرحل .

وكان هذا الفتح الميمون في صبيحة يوم الجمعة لعشرين

خلت من رمضان سنة ثمان من الهجرة .

وإنه لَمِمَّا يُسجل للمسلمين في سجل الخلود بسطور من نور أن لا تزهق إلا أرواح بضعة عشر رجلًا أعلنوا العصيان في فتح بلد كمكة ، ذاق المهاجرون من أهله ألوان الظلم والاضطهاد وسيموا سوء العذب ، ولكنها النفوس المؤمنة سرعان ما تنسى الإساءة ، وتستجيب لداعي الرحمة والعفو والصفح الجميل .

فلما استراح النبي ﷺ قليلا بقبته التي ضربت له على الحجون سار بين شيوخ المهاجرين والأنصار حتى المسجد الحرام وطاف بالبيت سبعًا وهو على راحلته يستلم الحجر بمحجن في يده ، وكان على الكعبة ثلثمائة وستون صنما فصار يشير إليها بعود في يده وهو يقرأ : ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩] ، فصارت تتهاوى وتسقط . ثم طلب مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة حاجبها فناوله لرسول الله ، ودخل الكعبة وكبر في جوانبها وطهرها مما كان بداخلها

من الصور والتماثيل ، وكان بعض بني هاشم قد طمع في مفتاح الكعبة لتكون لهم سدانة الكعبة مع سقاية الحاج ، ولكن السيد الأمين صلوات الله وسلامه عليه أبى وقال : أين عثمان بن طلحة ؟ فجاء فناوله إياه وقال له : « هذا يوم وفاء وبر » .

ثم جلس النبي ﷺ بالمسجد الحرام بعد ما صلى بمقام إبراهيم وشرب من ماء زمزم حتى تضلع ، وعيون أهل مكة شاخصة إليه والقلوب واجفة منه ، وتجمعت في رءوس أهل مكة الذكريات المؤلمة ، ذكريات ثلاثة عشر عامًا كلها اضطهاد وتشريد وإيذاء للنبي ﷺ والمهاجرين من صحابته ، وكانت خاتمة الاضطهاد أن أخرجوهم من ديارهم وأهليهم وأموالهم ، فلا عجب أن كانت أنفاسهم تتقطع من الخوف ، وأطل التاريخ برأسه على وادي مكة ليرى ماذا يصنع الرجل المظلوم المنتصر ؟

ولكن السيد العفو الرؤوف الرحيم ذا الخلق العظيم أخلف الظنون ، فقام على باب الكعبة خطيبًا ، وكان مما قال : « يا

معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، كلكم من آدم وآدم من تراب . ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ . ثم قال : « يأهل مكة ، ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » فاستعبرت العيون فرحًا ، وأقبلوا على رسول الله تائبين مسلمين لله رب العالمين .

ولم يهدر رسول الله إلا دم جماعة قليلة ممن عظمت جرائمهم ، واشتد إيذاؤهم له وللمسلمين ، ومع هذا فمنهم من جاء مسلمًا طالبًا العفو فعفا عنه ، ومنهم من أبى الانقياد فحقت عليه كلمة العذاب .

وإن النفوس المنصفة التي لا تنشد إلا الحق لتجد لزامًا عليها أن تقف هنا لحظات ، لتسجل فيها هذا المثال العالي الفريد في باب العفو والتسامح الذي لا تجد له مثيلًا في تاريخ الدنيا ، وها هو القرن العشرون – قرن النور والحرية والمثل الإنسانية كما

يزعمون – قد شهد حربين عالميتين ، وكلنا يعرف ماذا أنزل الغالب بالمغلوب من سلب وقتل وتخريب وتدمير وإذلال واغتصاب لحقوق الإنسان التي طالما طنطنوا بها وعقدوا لها المؤتمرات ولبسوا بها على السذج من بني الإنسان ، لقد أصبح شعار المنتصر في عصرنا هذا العبارة السائرة« ويل للمغلوب » فأين ما يفعله المنتصرون في قرنهم العشرين من مخازٍ يندى لها جبين الإنسانية ، مما صنعه نبي الله محمد بن عبد الله قبل أربعة عشر قرنا ؟ ! ! !

وبفتح مكة استؤصلت الوثنية ورست قواعد التوحيد والإسلام في الجزيرة العربية ، ودخل الناس أفواجًا في دين الله ، حتى أضحت الجزيرة على دين واحد وعلى قلب رجل واحد ، وأصبح أهلها أهلا لحمل رسالة الإسلام وإشاعة نوره في كل مكان . لقد كان لفتح مكة آثار بعيدة المدى ، فقد أصبح البيت الحرام رمز التوحيد والوحدة والأمان ، وقضى على عبادة الأوثان . ومن يومها وداعي الله من بيت الله يرفع

صوته مجلجلًا في الأجواء بأنه « لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله » وسيستمر إلى ما شاء الله .

ولم يكد يمضي قرن من الزمان منذ الفتح حتى بسط الإسلام لواءه على المعمورة حينئذ ، ونَعِمَ العالم بدين الحق والعدل والخير والسلام ، وضرب المسلمون في معاملة الأمم المغلوبة مُثُلًا عليا من التسامح والعفو والرحمة استمدوها من أخلاق صاحب الرسالة العظمى ، ولا سيما في يوم الفتح .

ولعلك - أيها القارئ الكريم - قد آمنت معي بأن فتح بلد الله الحرام هو فتح الفتوح في الإسلام .

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
من هديه ﷺ	٥
مقدمة الكتاب	٦
(١) استقبال رمضان	١٣
مرحبًا بك يا رمضان	١٤
(٢) فضائل شهر رمضان	٢٣
١- من فضائل شهر رَمضَان	٢٤
٢- شهر القرآن	٣٣
٣- رمضان والقرآن	٤١
٤- من وحي رمضان .. ليلة القدر	٤٩
٥- شهر الصبر والنصر	٥٧
(٣) حديث الصيام في القرآن	٦٥
١- من هدي القرآن الكريم في الصيام	٦٦
٢- تفسير بعض آيات الصيام	٧٣

الموضوع **الصفحة**

(٤) الصوم في السنة ٨٣
١- حديث الصيام في السنة النبوية ٨٤
٢- منهج الصائم في الصوم من السنة ٩٥
(٥) مغزى شريعة الصيام ١٠٥
١- تشريع الصيام في الإسلام ١٠٦
٢- الصوم والطب الحديث ١١٥
٣- الصّوم والتربية النفسّية ١٢٣
(٦) من ذكريات رمضان ١٣١
١- شهر الذكريات الخالدة ١٣٢
٢- من ذكريات رمضان «فتح الفتوح في الإسلام» ... ١٤٤
فهرس الموضوعات ١٥٧

* * *

صدر حديثاً ... من منشوراتنا

الحج والعمرة
في ضوء الكتاب والسنة

تأليف
الدكتور محمد أبو شهبة

جمع وإعداد
الشيخ أحمد مصطفى فضلية

مكتبة السنة